13 me Année No. 535

Lundi - 3 - 9- 1945

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٨٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٣٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٦٣٥ « القاهرة فى يوم الإثنين ٢٦ رمضان سنة ١٣٦٤ — ٣ سبتمبر سنة ١٩٤٥ » السنة الثالثة عشرة

الشعر والقصـــة

للأستاذ عباس محمود العقاد

حين يقول القائل إن الذهب أنفس من الحديد يقرر شيئاً واحداً ، وهو أن الحديد لا يدرك ثمن الذهب فى سوق البيع والشراء ، ولكنه لا يقرر إلغاء الحديد ولا استخدام الذهب فى المصانع والبيوت بديلا منه ، ولا يعنى أن الذهب يغنى عن الحديد أو عن غيره من المعادن فى غرض من أغراضه

كل ما يقرره شيء واحد وهو أن سعر الذهب أغلى من سعر الحديد ، ولا لوم عليه فى ذلك ، وإن قيل له إن الحديد أنفع وأشيع من معادن الزينة والتجميل

ونحن قد فضلنا الشعر على القصة فى سياق الكلام عليهما من كتاب « فى بيتى » ، فكل ما قلناه إذن هو أن الشعر أنفس من القصة ، وأن محصول خمسين صفحة من الشعر الرفيع أوفر من محصول هذه الصفحات من القصة الرفيعة

فلا يقال لنا جواباً على ذلك إن القصة لازمة ، وإن الشعر لا يغنى عن القصة ، وإن التطويل والتمهيد ضرورتان من ضرورات الشرح الذى لا حيلة فيه للرواة والقصاصين

ويستطيع الأديب الأستاذ محمد قطب أن يقرر كما قرر فى (الرسالة) : « أن القصة دراسة نفسية لا غنى عنها فى فهم سرائر النفوس ، وليس الشعر أو النقد أو البيان المنثور بمغن عنها ، لأنها فى ذاتها أحد العناصر التى يحتاج إليها قارئ الحياة »

يستطيع الأديب هذا كما يستطيع أن يقول : « إن الحديد معدن نافع لا غنى عنه فى تركيب الآلات وبناء البيوت ، وليس الذهب أو الفضة أو الجوهر النفيس على اختلاف بمغن عنها ، لأنه فى ذاته أحد المعادن التى يحتاج إليها فى الحرب والسلم وفى الصناعة والتجارة »

ولكنه بعد كل هذا يذهب إلى السوق ليشترى الحديد ، فلا يبذل فيه ثمن الذهب والفضة ، ولا ينكر على التاجر أن يزن له درهماً من النقد برطل من الحديد المفيد

وقد قلنا فى كتاب « فى بيتى » إن القصاص قد يرجح الشاعر فى الملكة الذهنية والقريحة الفنية ، ولكننا لا نفضل القصة على الشعر من أجل ذلك كما لا نفضل الجميز على التفاح ، لأن الأرض التى أثمرت الجميز كانت فى حالة من الحالات أخصب وأجود من الأرض التى أثمرت التفاح

وينفعنا مثل الجماد هنا كما ينفعنا مثل النبات ، فإن تاجر الحديد قد يكون أغنى وأقدر من تاجر الذهب ، وقد يكون المنجم الذهبى أقل ربحاً ومحصولا من المنجم الحديدى فى حالة من الحالات ، ولكن تقويم المعدنين لا يتوقف على تقويم التاجرين

أو المنجمين ، لأنهما لا يرجعان إلى نوع واحد من التقدير والحساب

ويقول الأستاذ محمد قطب : « قرأت سارة وقرأت فى الديوان ما يقابلها من شعر ، وهو شعر جيد رفيع ، ولكننى لا أستطيع مع ذلك أن أقول إننى استغنيت به عن قراءة سارة ، أو إن سارة ليس فيها جديد مفيد من الدراسات النفسية العميقة ... »

فالذى نقوله إن الأستاذ غير مطالب بأن يقول هذا فى باب الموازنة بين الروايات والقصائد ، لأن موافقته على رأينا فى الشعر والقصة لا تقتضيه أن يمحو القصة وأن يثبت الشعر وحده ، وإنما يبقيهما ويبقى معهما الترجيح بينهما ، ويقدم الشعر على القصة فى هذا الترجيح

ولا حاجة به إلى جهد طويل للتسليم بفضل الشعر على القصة فى هذه الموازنة ، لأنه ينتهى إلى هذه النتيجة إذا سأل نفسه : أيهما أوفر محصولا من الشعور والثروة النفسية ؟ ألف صفحة من الشعر المنتقى ، أو ألف صفحة من الرواية المنتقاة ؟

أما أنا فجوابى على ذلك جزماً وتوكيداً أن صفحات الشعر أوفر وأغنى ، وأن معدن الشعر من أجل ذلك أنفس وأغلى من معدن الرواية

فإذا كان هذا رأيه فقد اتفقنا

وإذا لم يكن رأيه ورأيى متفقين فى ذلك ، فهـذا هو الجل وهذا هو الجمال كما يقولون فى أمثالنا الوطنية : هات ألف صفحة من رواية أو عدة روايات ، وخذ ألف صفحة من الشعر الرفيع ، وارجع إلى حكم القراء فيما شعروا به بعد قراءة القصائد وقراءة الحكايات ، أو قدر ما يشعرون به على سبيل الظن والتخمين ، واحتفظ برأيك بعد ذلك كما تشاء

إننى لم أكتب ما كتبته عن القصة لأبطلها وأحرم الكتابة فيها ، أو لأننى أنها عمل قيم يحسب للأديب إذا أجاد فيه

ولكننى كتبته لأقول « أولا » إننى أستزيد من دواوين الشعر ، ولا أستزيد من القصص فى الكتب التى أقتنيها . وأقول « ثانياً » إن القصة ليست بالعمل الوحيد الذى يحسب للأديب ، وإنها ليست بأفضل الثمرات التى تثمرها القريحة الفنية ، وإن اتخاذها معرضاً للتحليل النفسى أو للاصلاح الاجتماعى لا يفرضها ضربة لازب على كل كاتب ، ولا يكون قصارى القول فيه إلا كقصارى القول فى الذهب والحديد : الحديد نافع فى المصانع والبيوت ، ولكنه لا يشترى بثمن الذهب فى سوق من الأسواق

* * *

وكتب العالم الفاضل الأستاذ على العمارى المدرس بالأزهر يعقب على القياسين اللذين ذكرتهما فى الكتاب للمفاضلة بين الشعر والقصة ، وهما « أولا » أن القصة كثيرة الأداة قليلة المحصول ، و « ثانياً » أن الطبقة التى تروج بينها القصة لا ترتقى فى الثقافة والذوق والتمييز مرتقى الطبقة التى تفهم الشعر وتشعر بمعانيه

وقد قال الأستاذ : « فالمقياس الأول تحدث عنه علماء البلاغة والنقد فكانوا يرون أن خير الكلام وأبلغه ما جمع المعنى الكثير فى اللفظ القليل ، وهذا المقياس — وإن صلح للمفاضلة بين عبارة وعبارة ، أو بين بيتين من الشعر ، أو قطعتين من النثر فى موضوع واحد ، فإنه لا يصلح للمفاضلة بين القصة والشعر . وذلك أن فائدة القصة ليست مقصورة على الغرض الأساسى الذى وضعت من أجله ، ولم تكن خمسون صفحة فى قصة ما ولو بلغت الطبقة الدنيا فى القصص تمهيداً لفائدة تقال فى سطر أو أسطر ، ولكن هناك التصوير الرائع والوصف الدقيق لحركات الأحياء ونوازع النفوس»

والذى نقوله للأستاذ الفاضل إن الموازنة بين الشعر والقصة لا تكون إلا بذلك الميزان الذى قال إنه لا يصلح للمفاضلة بينهما .

لأنك إذا قلت إن هذه القصيدة أبلغ من تلك لجمعها المعنى الكثير فى اللفظ القليل ، فإنك لا تفاضل بين فنين أحدهما قاصر بطبيعته عن مرتبة الفن الآخر ، ولكنك تفاضل بين كلامين أحدهما فاضل فى الفن نفسه والآخر مفضول فيه

أما إذا قلت إن الشعر أفضل من القصة ، لأن الشعر من شأنه أن يجمع المعنى الكثير فى اللفظ القليل ، فتلك هى المفاضلة بين طبيعة الشعر وطبيعة القصة ، وإن بلغت فى بابها غاية الإتقان

ونرجع إلى التمثيل بالذهب والحديد فنقول : إن ترجيح ذهب على ذهب بخفة الوزن يدل على أن أحد الذهبين ذهب ناقص وأن الذهب الآخر ذهب كامل ، ولا يفيدنا شيئاً فى الموازنة بين هذا المعدن وغيره من المعادن

ولكننا إذا قلنا إن قليل الذهب أغلى من كثير الحديد ، فلا يلزم من ذلك أن الحديد ناقص فى صفاته المعدنية ، لأنه قد يكون فى بابه على غاية من الجودة والمتانة ، وإنما يلزم منه أن معدن الذهب أغلى من معدن الحديد

وهذا بعينه الذى قصدنا إليه حين قلنا إن قليل الشعر يحتوى من الثروة الشعورية ما ليست تحتويه الصفحات المطولات من الروايات ، فإن احتياج القصة إلى التطويل لبلوغ أثر الشعر الموجز هو وحده الذى يبين لنا أن قنطاراً من القصة يساوى درهماً من الشعر ، وإن القصة فى معدنها دون الشعر فى معدنه ، لأن النفاسة هى أن يساوى الشيء القليل ما يساويه الشيء الكثير

أيقول الأستاذ إن خمسين صفحة من القصة لازمة للتصوير والحوار الذى يتحقق به سياق القصة ؟

حسن . فهذا اللزوم نفسه هو الذى ينزل بها دون منزلة الشعر فى متعة الذهن والخيال ، لأن الشعر بغير حوار وبغير تمهيد من أمثال تلك التمهيدات القصصية يعطينا فى خمسين صفحة أضعاف ما نعطاه فى تلك الصفحات ، بل هى لا تعطينا فى القصة شيئاً إلا إذا وصلت بعد التمهيد والحوار إلى مادة الشعر فى لبابها : وهى التصوير والخيال

وقال الأستاذ عن المقياس الثانى : « أما المقياس الثانى فأحسبه ليس كذلك فاصلا ، فالطبقات الدنيا فى الثقافة أو فى الأخلاق لا تروج عندها إلا أنواع خاصة من القصص ليست هى التى يفاضل بينها الكاتب وبين الشعر ، وكما يروج عندهم نوع من القصص رخيص كذلك يروج عندهم أنواع من الشعر رخيصة ، على أننا نجد أن ميل العامة ليس دائماً إلى القصص ، فهناك من الأمم ما يميل عامتها وخاصتها إلى الشعر ويروج عندهم ... »

ونقول نحن إن ميل بعض العامة إلى الشعر صحيح ، ولكن حين يكون الشعر قصة ، وحين يكون الشعر من قبيل ملاحم الهلالى والزير سالم . أما حين يكون الشعر وصفاً كوصف ابن الرومى أو البحترى ، وحكمة كحكمة أبى الطيب وأبى العلاء ، وفخراً كفخر الشريف وأبى فراس ، فالعامة لا تفضله على القصص التى تفهمها ، وإن أسفت غاية الإسفاف

ومما لا شك فيه أن عدد النسخ التى تصدر من ديوان المتنبى فى الطبعة الواحدة أقل من عدد النسخ التى تصدر من ألف ليلة وليلة ، أو من الروايات العصرية التى تتداولها الأيدى مرة فى كل شهر أو مرة فى كل أسبوع ، وهذا مع إقبال القراء على ديوان المتنبى لغرض غير لذة المطالعة ، وهو غرض الدرس أو المحاكاة ، ومهما يكن من طبقة القراء الذين يقبلون على تلك الدواوين وتلك الروايات ، فلا نزاع فى أن الروايات إنما تروج لأن تحصيل لذتها أسهل وأقرب من تحصيل لذة الدواوين ، وليس لارتفاعها عليها فى طبقة الفن وملكة التأليف

وقد يأكل الفقير اللحوم ويأكل الغنى البقول ، ولكننا لا نستطيع أن نقول من أجل ذلك إن البقول طعام الأغنياء ، وإن اللحوم طعام الفقراء

وكذلك قد يوجد من العامة من يقرأ الشعر حتى الرفيع منه ، كما يوجد من الخاصة من يقرأ القصة حتى الوضيع منها ، ولكننا لا نستطيع أن نقول من أجل ذلك إن الشعر هو قراءة الجهلاء ، وإن القصة هى قراءة المثقفين

عباس محمود العقاد

مراكش العربية تستصرخ

للأستاذ حسن أحمد الخطيب

مَنْ كان يظن — في أثناء الحرب العالمية الثانية — أن هؤلاء الغربيين الذين ملأوا الدنيا صياحاً ، ورفعوا عقائرهم بالحرية والعدالة والمساواة ، وبحقوق الأفراد والأمم ؟ مَن كان يظن أنهم يجيئون في أعقاب حرب ضروس وهيجاء طاحنة ، قد ضريت وشبّ ضرامها ، وأتت على الملايين من البشر قتلا وأسراً وتشريداً ، فلا يكون لهم منها عبرة ولا مزدجر ، ولا تؤثر فيهم المثلات ، فيسلطون جبريّتهم على الأمم الضعيفة التي منيت باستعمارهم وابتليت بدائهم ، ويحكمونها بما استطاعوا من قوة الباطل وأساليب الظلم التي لا تعرف الرحمة الإنسانية ، ولا الشفقة التي يجب أن تكون بين بني الإنسان ! !

بالأمس رأينا كيف بطش الفرنسيون بأهل الجزائر في شهر مايو الماضي ، فضربوا البلاد ببوارجهم الحربية وطياراتهم المدمرة ونكلوا بالأحرار من أبنائها

واليوم نقرأ في إحدى الصحف اليومية [1] أن الحكومة الإسبانية تنهج نهج الفرنسيين وتسير على غرارهم في التنكيل بمراكش التي أصيبت بالاستعمار الإسباني ، كأنها سياسة مرقومة وخطة مرسومة من المستعمرين لا محيد لهم عنها ولا محيص ، وهو أن يسلطوا قوتهم الغاشمة على من يقع في حبائلهم من الأمم الضعيفة حتى تُخبِتَ وتخشع وتُضرب عليها الذلة والمسكنة ، فلا يرتفع لها صوت بحق ، ولا تجأر بدفع ظلم ، فأين مبادئ الحرية والعدالة التي أعلنها أقطاب الأمم المنتصرة ؟ وأين الوصايا الإنجيلية التي نشروها في الخافقين ؟ بل أين الحريات الأربع التي بشروا بها العالم الجديد وزعموا أنها تكفل تحقيق عهد يسوده السلام والأمن والحرية والعدل ؟ !

إن الحكومة الإسبانية قد فتحت باب الهجرة على مصراعيه للإسبانيين يتدفقون منه على مراكش العربية الإسلامية ، ومنحتهم من وسائل التيسير والإغداق ما يمكن لهم في أرضها ، ويجعلهم يتحكمون في رقاب أهلها ، وما يُصيّرهم بعد قليل من الزمن أكثر عدداً من أبناء البلاد ، وأقوى عدة وأكثر مالا ، وأعز نفراً ، وبذا يتسنى لهم جعلها جزءاً متمما لإسبانيا ، وإقليماً من أقاليمها ، كما تحاول ذلك فرنسا في الجزائر ، وليس أقوى دليلا ولا أصدق شاهداً على ذلك من أن الإسبانيين قبل الحرب الأهلية لم تكن نسبتهم في مراكش تعدو ٧٪ من سكانها ، فأصبحوا بعد سبع سنين قد ذرّفوا على ثلث أهلها : سياسة ما أشبهها بسياسة الصهيونيين في فلسطين ، يقصدون من ورائها التغلب على أبناء البلاد بما يكون لهم من كثرة العدد وقوة الحكم والاستعمار ، ويقصدون إلى قهر العرب والمسلمين بحملهم على التجنس بالجنسية الإسبانية مكرهين ، أو بطردهم من البلاد صاغرين !

ولكي ينفذ الإسبان تلك السياسة الباطشة ، ويحققوا مآربهم الظالمة ، ويسيروا في سبيل الإثم والعدوان بنجوة من الرقباء ، ومنأى من الأحرار الذين يغضبون للحق ، ويثورون على الظلم — أحاطوا بالمراكشيين ، وأخذوهم بأساليب العنف والاستبداد ، وسلطوا عليهم وسائل الإخافة ، واسترهبوهم وجاءوا بأمر عظيم ، فاعتقلوا الزعماء في بيوتهم ، ونفوا الأحرار إلى بلاد غير بلادهم ، ثم عمدوا إلى الصحف فعقلوا ألسنتها ، وحطموا أقلامها ، وقضوا على حريتها ، ثم أمعنوا وعتوا عتواً كبيراً : فألغوا كثيراً من الوظائف الشرعية ، ومنعوا الاجتماعات والمحافل العامة ، حتى المحاضرات العلمية ذادوا الشعب عنها وحالوا بينه وبين الاستماع إليها

ظلم عبقري ، وجور ليس له ضَحىً ، لا يصدر إلا عن نفوس قد تجردت من نوازع الخير ، وقلوب قد ران عليها ما اكتسبت من الإثم والعدوان ، وحيل بينها وبين خلال البر والرحمة والإحسان

ألم يحدثكم التاريخ — معشر الإسبان — بأن أسلاف أولئك المراكشيين من العرب والمسلمين قد فتحوا بلادكم فأنقذوكم من ظلم الونداليين ، وجور القوطيين ، ثم أظلوكم بلواء العدل والرحمة ونشروا بينكم المبادئ السامية والعلوم النافعة ، وكان شعارهم في حكمهم : « لأهل الذمة ما لنا وعليهم ما علينا » ، فلم يستبيحوا

(١) المصري في ٣٠ أغسطس سنة ١٩٤٥

بمد عيد وفاء النيل

متى نتحكم فى نهرنا ؟

للأستاذ وديع فلسطين

قديماً قالوا « مصر هبة النيل » ، وما كانوا بذلك يتزجون أو يلقون الـكلام على عواهنه ، وإنما قرروا حقيقة أثبتت الأيام صوابها ، وهى أن ماء النيل أثمن شىء فى مصر ، أثمن من حديدها ومعادنها وذهبها وزيتها .

وما فتئنا نسمع من ربع قرن من الزمان أحاديث تستطيبها الأذن عن مشروعات النيل وضبط مائه والانتفاع بكل نقطة منه واستغلاله فى زراعة الصحراوات وو ... مما يروق لذوى الخيال الواسع أن ينساقوا وراءه . ولو أننا حولنا بصرنا إلى غيرنا من الدول الزراعية ودرسنا أساليبها فى الزراعة وضبط الماء ، وقلدناهم فيما نجحوا فيه لـكان لنا اليوم أن نفخر بنهر أصبحنا أسياده بعد ما كان سيدنا ، وتحكمنا فيه بعد ما ظلّ أربعة آلاف من السنين أو يزيد يشمخ بتحكمه فينا .

وقد احتفلت مصر فى الأسبوع الماضى بعيد وفاء النيل .

وجدير بنا فى هذه المناسبة أن نعرض صفحة مما نهضت به دولة زراعية ، فرفعت مستوى المعيشة فيها وأصلحت أراضيها وتزعمت الأمم الزراعية قاطبة .

* * *

هذه قصة نهر عظيم فى الولايات المتحدة يدعى نهر تنيسى Tennessee استطاع الأمريكيون أن يتحكموا فيه بعد ما كان يكتسح المحصولات والغابات ويخرب البيوت ، فأمكن الانتفاع به إلى أقصى حد ممكن ودرء خطره الذى كان يهدد الدور والحقول على ضفتيه .

يمتد نهر تنيسى من الشرق إلى الغرب فى المنطقة الوسطى من الولايات المتحدة ، وهو لا يبلغ فى طوله مبلغ نهر النيل لأن طول النهر الرئيسى ١٠٤٠ كيلو متراً بينا يزيد طول النيل على ستة آلاف من الـكيلو مترات . غير أن الأراضى الصالحة للزراعة فى وادى تنيسى تبلغ مساحتها ١٠٥,٠٠٠ كيلو متر مربع فى حين أن مساحة الأراضى الصالحة للزراعة فى مصر لا تزيد عن ١٣,٦٠٠ ميل مربع . ونهر تنيسى ، على النقيض من نهر النيل الذى يخلو مجراه فى مسافة طولها ١,٦٠٠ كيلو متر من الأنهار الفرعية ، غنىّ بمئات من الأنهار الصغيرة التى ترتفع فى الجبال فى هذه المنطقة من الولايات المتحدة . وحينما يهطل المطر الغزير

لأنفسهم أن ينتهكوا حرماتكم أو يسلبوكم حقوقكم ، أو ينتزعوا منكم دياركم وأموالكم ، بل عشتم وإياهم إخواناً متساوين فى الحقوق والواجبات ، لا فضـل لعربى على عجمى إلا بالتقوى أو بعمل صالح .

لقد شيد العرب والمسلمون فى الأندلس حضارة قامت على دعائم الحكم الصالح والعلم النافع ، حتى صارت المنارة التى يشع منها نورالمدنية والعرفان فى أسبانيا وسائرأنحاء أوربة ، فلم تنكرون عارفتهم، ولم تجحدون فضلهم وهم أساس نهضتكم وقوام حضارتكم؟

ألا فاتركوا للمراكشيين بلادهم ، وارفعوا عنهم نير استعبادكم، واعلموا أنهم أباة أحرار لن يكفوا عن الجهاد ، ولن يرتضـوا باستقلال بلادهم وحريتها بديلا ، ولسوف يبذلون كل مرتخص وغال ، ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم حتى ينالوا حقوقهم ويكتب لهم النصر المبين

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق

وعلى الجامعة العربية أن ترفع الصوت عالياً بالدفاع عن العروبة والإسلام فى تلك البلاد ، فإن حقوق العرب والمسلمين لا تتجزأ ، وهى واحدة فى كل مكان ، فمراكش والجزائر وغيرهما من البلاد المهيضة الجناح يجب أن تدخل فى نطاق الجامعـة لترعى حقوقها وتذود جور القاسطين عنها ليـكون التعاون شاملا ، وعمل الخير عاماً يشمل العرب والمسلمين أجمعين

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخـير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »

حسن أحمد الخطيب

فى الربيع ، تمتلئ هذه الفروع وتفيض على شطآنها . وكما أن نهر النيل يخلف وراءه مقادير وافرة من الغرين يغذى التربة ويعززها ، فإن أنهر وادى التنيسى تخلف وراءها كذلك غريناً يهب الحياة للنباتات والغابات .

وكان موضوع ضبط نهر تنيسى والروافد التى تصب فيه أساساً لمشروع كبير يعرف اليوم باسم « إدارة وادى تنيسى »(١) وقد بلغ فى مايو الماضى العام الثانى عشر من حياته . وفى الواقع أن « الإدارة » مصلحة تابعة لحكومة الاتحاد . غير أنها تختلف عن سواها من المصالح الحكومية فى الولايات المتحدة لأن سلطتها تمتد إلى منطقة معينة من البلاد ، لا إلى البلاد بأسرها . والوادى الذى يشق نهر تنيسى طريقه فيه يقع فى أجزاء لسبع ولايات فى الجزء الأوسط من ولايات أمريكا المتحدة . وتلك الولايات هى : نورث كارولينا وفرجينيا وجورجيا وآلاباما ومسيسبى وكنطكى وتنيسى . وما مشروع وادى تنيسى إلا لاستثمار موارد منطقة كانت الأمطار الغزيرة تفسدها وكانت الفيضانات الكثيرة لأنهر كثيرة تصب فى وادى تنيسى فتخربه وتزيل معالمه .

وفى مستهل المدة الأولى لرياسة الرئيس الراحل المستر فرنكلن روزفلت ، أثنى الرئيس على مشروع إنشاء إدارة وادى تنيسى وقال فى رسالته إلى الكونجرس فى ١٠ إبريل ١٩٣٣ : « إذا وفقنا فى هذا ، استطعنا أن نسير خطوة خطوة فى سبيل تحسين الموارد الطبيعية الأخرى الكبيرة داخل حدود بلادنا » . وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ ، وضع المستر روزفلت ستة مشروعات مماثلة لمشروع وادى تنيسى .

وتقوم مشروعات روزفلت السبعة جميعاً على مبدأ مشترك وإن اختلفت فى كيفية تطبيق هذا المبدأ فى المناطق المختلفة . ويتلخص المبدأ فى أن يطبق على مجال واسع وتتولى إدارته هيئة عامة تهدف إلى استغلال الموارد البشرية والطبيعية دون أن تتأثر بالميول الحزبية .

ويجرى نهر تنيسى وكمبرلند فى منطقة مساحتها ١٠٥٫٠٠٠ كيلو متر مربع ، وعند النبع فى جبال سموكى وبلورج Smoky and Blue Ridge يصب نهر تنيسى من ارتفاع ٩٠٠ متر عن سطح البحر فى نقطة تنخفض إلى ٩٠ متراً فى ولاية كنطكى حيث يتصل بنهر أوهايو . ويصب نهر أوهايو بدوره فى نهر المسيسبى . ويقدر معدل هطول الأمطار فى السنة فى الوادى بنحو ١٣٢ سنتيمتراً ويبلغ الهبوط السنوى فى بعض الجهات ٢٠٠ سنتيمتر .

وفى يوم ١٠ إبريل ١٩٣٣ ألقى الرئيس روزفلت خطاباً فى الكونجرس ـ وقد أسلفنا الإشارة إليه ـ لخص فيه المزايا المنتظرة لمشروع وادى تنيسى فقال : « إن المشروع إذا نفذ بكليته سيؤدى حتما إلى فوائد جمة ؛ فتروى الحقول التى تصل إليها مياه الفيضان ، ويمنع تآكل التربة وتعاد زراعة الغابات ، ويؤدى إلى عدم إهمال زراعة الأراضى المتطرفة كما يؤدى إلى انتشار الصناعة وتنوعها . وبالإجمال فإنه يؤدى إلى استغلال جميع مرافق الولايات المتحدة لمصلحة الملايين من الأهالى فى جميع الولايات . كما أنه يبعث الحياة فى جميع مظاهر الحياة وكل ما يهم الإنسان » .

واقترح الرئيس لإنشاء إدارة وادى تنيسى إصدار تشريع لتأليف « هيئة لها سلطة كسلطة الحكومة وتتمتع بميزتى المرونة والتوثب شأنها فى ذلك شأن الهيئات الأهلية » . وقد وافق الكونجرس على مشروع قانون تأليف إدارة وادى تنيسى يوم ١٧ مايو ١٩٣٣ وذيله الرئيس روزفلت بإمضائه .

ونص فى ديباجة قانون إدارة وادى تنيسى على أهداف المشروع . ومن تلك الأهداف تحسين حالة الأراضى الزراعية والتحكم فى فيضان نهر تنيسى وإعادة زراعة الغابات واستغلال الأراضى المتطرفة فى الوادى وتحسين حالة الزراعة والصناعة فيه . وخولت لها سلطة نزع ملكية الأراضى لبناء السدود والخزانات ومحطات توليد القوى وغيرها من المنشآت . وخول لإدارة وادى تنيسى الحق فى بيع ما يفيض من القوة الكهربائية إلى الشركات والأفراد والهيئات المختلفة فضلا عن الولايات والمقاطعات ومجالس البلديات . وتكون الأولوية فى الشراء للولايات والمقاطعات ومجالس المديريات .

ويستخدم فى الوقت الحالى ٢١ سداً لضبط الماء فى نهر

(١) Tennessee Valley Ruthovity .

تنيسي . وقد نجحت تلك السدود في جعل المنطقة مقراً لثاني محطة لإنتاج القوة في الولايات المتحدة . وتتمتع ٨٥٫٠٠٠ مزرعة بمزايا الكهرباء ، أي بنسبة مزرعة واحدة تضاء بالكهرباء في كل خمس مزارع ، وأصبح سكان الوادي يعيشون عيشة جديدة نسبة لاستعمالهم بالكهرباء . فأصبحت المزارع تستخدم المضخات الكهربائية بدلا من رافعات الماء الفطرية : (كالساقية والشادوف ...) وأصبح السكان يتمتعون بمزايا آلات تجفيف الطعام والثلاجات وتوفرت لهم آلات قطع الخشب وطحن البقول للماشية . وأصبح اللبن يوضع في ثلاجات حديثة . وأضحى أعداد اللحوم وطهي الطعام لا يستغرق وقتاً طويلا . وأصبحت ربات المنازل يستطعن استخدام المدفآت الكهربائية وآلات كي الملابس الكهربائية وغيرها من الأدوات التي توفر الوقت والجهد والمال .

ولم تتجل آثار إدارة وادي تنيسي في أي ميدان من ميادين الحياة كما تجلت في ميدان الزراعة . فقد أمكن للإدارة — بالتحكم في مياه الفيضان والتغلب على تآكل التربة وتوفير مواد الفوسفات للتسميد — أن تجعل المزارع في حالة رخاء لم يسبق لسكان الوادي عهد بها ، وأخذت المحصولات التي تسمى في الولايات المتحدة « محصولات الزراعة » كالطباق والقطن والذرة مثلا أخذت تفسح المجال للبرسيم وفول الصويا وهما من المحصولات التي تكسب التربة غنى في المواد العضوية . وأصبح من المألوف حرث الأراضي بالآلات التي تحرثها حرثاً منتظما يعمل على توقي تآكل التربة ، وأخذ الفلاحون يقومون أفراداً بفلاحة سفوح التلال وإصلاح الأراضي البور . واستطاعت إدارة وادي تنيسي بمعاونة الهيئات الأخرى المتصلة بها أن تقنع الفلاحين في الوادي بالإكثار من زراعة أنواع شتى من الخضروات لزيادة دخلهم وتمكينهم من شراء مزيد من الملابس وغيرها من ضرورات الحياة . واستطاع الفلاحون في منطقة وادي تنيسي أن يستخدموا الكهرباء في إدارة الآلات التي توفر العمال والوقت والمال . وشرعوا يتعلمون كيف يستطيعون توليد سلالات أفضل من الماشية وإنتاج أنواع ممتازة من الفاكهة والخضروات ، وهي جهود تهدف إلى إنتاج مواد منوعة غنية بالفيتامينات تقوّم صحة الفلاحين وعائلاتهم ، وتكسبهم مناعة وجلداً .

وانتشرت الصناعة في الوادي بفضل إدارة وادي تنيسي . وزاد إنتاج الألومنيوم والمطاط والدقيق والمواد الكيميائية اللازمة للحرب كنترات النوشادر وهي مادة هامة في صناعة المفجرات القوية ، واستغل في أثناء الحرب الأخيرة ٧٥ في المائة من قوى إدارة وادي تنيسي في إنتاج المواد الحربية .

وأنشئت إلى جانب هذا المشروع الضخم مشروعات أخرى تتصل بالحياة اليومية لسكان هذه المنطقة فضلا عن مشروعات توفر قوى كهربائية رخيصة وتحسن وسائل الزراعة والإنتاج الصناعي ، وشيدت آلاف من المنازل الرخيصة وانتشرت المعاهد واتخذت وسائل مكافحة الملاريا ، ونظمت الهيئات الجماعية للتسلية ، وأسست هيئة كبيرة للعناية بصحة سكان الوادي عناية تامة .

وأصبحت إدارة وادي تنيسي نموذجاً حياً للتنظيم الإقليمي ولفتت أنظار العالم كله . فزارها رجال من جميع بلدان العالم من مزارعين ومهندسين جاءوا ليتخصصوا في أعمال الإدارة . وسعى مهندسو إدارة وادي تنيسي إلى بلدان أخرى ليقيموا فيها مشروعات مماثلة أو ليعاونوا في حل مشكلات الزراعة وتوليد الكهرباء فيها .

وفي يوليو ١٩٤٣ كتب المستر جوليان هكسلي العالم البريطاني والكاتب المعروف مقالا قال فيه : « إن فكرة إدارة وادي تنيسي على أساس إقليمي — كاستغلال نهر في واد مثلا — أصبحت فكرة يدين بها العالم أجمع . وإن آراء الإدارة ووسائلها تعمل على إرشاد هيئات جديدة مماثلة ونموها ... وأجريت دراسات لتمكين تنفيذ مشروع مماثل على نطاق دولي بدلا من النطاق الوطني الضيق ، ومن شأن هذا المشروع الدولي أن يحد من سلطة دول العالم شأنه في ذلك شأن إدارة وادي تنيسي التي تحد من سلطة الولايات وخاصة فيما يختص بالحقوق والحدود » .

وجاء في ختام تقرير خاص يبحث في موضوع الإدارة : « إن بيت القصيد في مشروع وادي تنيسي ، أنه يوفر للرجال وسائل جديدة واقعية لاستخدام الموارد الطبيعية . كما أنه يهيئ لنا طريقة جديدة لمعالجة المشكلات المرتبطة بعضها ببعض الخاصة باستغلال الموارد الطبيعية التي تهم الجميع » .

وديع فلسطين

١ – نظـــرات
في دائرة المعارف الإسلامية(١)
الترجمة العربية

الأستاذ كوركيس عواد

تمهيد :

حينما يريد المؤرخ الأمين المنصف عرض أهم المصنفات المنقولة إلى العربية فى عصرنا الحاضر ، واستقصاء أنفس ما طبع منها ، يجد فى طليعتها « دائرة المعارف الإسلامية »(٢) التى اضطلع بترجمتها من أصولها الفرنجية لجنة عاملة ، قوامها أربعة أساتذة وهبهم الله مزايا وخلالا حسنة كالصبر والمثابرة وبعد الهمة واستسهال الصعب

وإذا ما قيل « دائرة المعارف الإسلامية » ، فذلك يعنى مجموعة كبيرة من المباحث ادخرت كنوزاً من العلم بشؤون البلدان العربية والإسلامية وبشعوبها وأديانها ولغاتها ورسومها ومشاهير رجالها وأهم أحداثها التاريخية وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية والدينية . وبعبارة أخرى إن هذه الدائرة احتوت على كل مايحسن الوقوف عليه فى هذه المناحى الخطيرة الشأن ، فهى وحدها خزانة شرقية حافلة تشهد لمؤلفيها — وهم أقطاب الاستشراق فى هذا العصر — بالاطلاع الواسع على ما يتعلق بالشرق وبالبراعة فى الجمع والتأليف والدقة فى التبويب والتصنيف

ولا مراء أن الإقدام على ترجمة سفر كبير كهذا يكون محفوفاً بصعاب لا يدرك مداها إلا من يعانى أمر الترجمة . وفى تذليل أغلب تلك ، تبات ما يحملنا على الإقرار بفضل هؤلاء الأساتذة المترجمين والاعتراف بما أفرغوه من جهد محمود فى إتقان عملهم والسير به إلى الأمام ما وسعهم ذلك

بيد أنه لترامى أطراف الموضوع وتشعب مناحيه لا مناص من أن يحصل هنا وهناك بعض الهفوات ، أوتقع العين على ألفاظ مصحفة أو عبارات تفتقر إلى إيضاح أو تعقيب . وهـذا كله لا يحط من قدر الترجمة ولا يغض من جهد المترجمين فى شيء

وقد كنا وما زلنا نترقب صدور أجزاء هذه الدائرة الواحد تلو الآخر فنتلقفها ونطالعها بشـوق . وكنا نعنى بوجه خاص بالمباحث العراقية المنثورة فيها ، فنعلم على المواطن التى تحتاج إلى تأمل أو إعادة نظر فى ترجمتها . ولما اجتمع لدينا من هاتيك الملاحظات ما يؤلف مقالا رأينا أن نستأذن المترجمين الكرام فى نشرها اليوم إظهاراً للحقيقة التى هى رائد كل نفس كبيرة وإفادة لمن يملك نسخة من هذه الدائرة بترجمتها العربية

وقد صنفنا ملاحظاتنا هذه فجعلناها على أبواب خمسة وهى : أعلام الناس ، الأمكنة والبقاع ، الكتب والمراجع ، الأعداد ، الملاحظات المتفرقة . وسنسير فى إيرادها وفقاً لسياقة المجلدات والصحائف ومن الله التوفيق

أولا : أعلام الناس

ورد فى ١ : ٨١ ب ١٥ (١) معن بن صاعدة . وصوابه معن ابن زائدة

وفى ١ : ٨٢ ا ٧ البيروتى (بالتاء) وصوابه : البيرونى (بالنون) . وهذا من أوهام الطبع

وقد تصحف اسم القس ميخائيل «الغزيرى» اللبنانى المارونى (١٧١٠ — ١٧٩٤ م) غير مرة إلى « كازيرى » (انظر مثلا ١ : ١٢٠ ا ٧ ؛ ١٥٢ ا ٦ و ١٩ ؛ ٤ : ٢٤٥ ب ٧) وذلك لأن اسمه يكتب باللاتينية هكذا Casiri . وللوقوف على ترجمة الغزيرى نحيل القارئ إلى مراجعة : الآداب العربية فى القرن التاسع عشر للأب لويس شيخو اليسوعى (١ : ١٨) ، وما كتبه

(١) يرى بعض علماء اللغة فى عصرنا ، وفى مقدمتهم العلامتان الأب أنستاس مارى الكرملى وأحمد باشا تيمور ، أن لفظة (معلمة) أكثر موافقة للمطلب من « دائرة المعارف » وبهذا الوجه يقال « المعلمة الاسلامية » راجع مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق (٣ [١٩٢٣] ص ٥٦ – ٥٨ و ١١٦ – ٢١)

(٢) ظهر من هـذه الترجمة العربية حتى كتابة هذه السطور ، اربعة مجلدات كاملة وعشرة أعداد من المجلد الخامس ، تسلسلت المواد فى مطاويها من « ا » إلى « تفليس » والعمل ما زال جارياً

(١) نريد بذلك : رقم المجلد ، فالصفحة ، فالحقل ، فالسطور ؛ من الترجمة العربية لدائرة المعارف الاسلامية .

الأب بولس مسعد فى مجلة المشرق (٣٤ (١٩٣١) ص ٦٠١ — ٦٠٤) .

وفى ١ : ٦٣ ، ب ٢٥ أردبصان . والصواب : ردبصان

وورد فى السطرين الأخيرين من ١ : ١٦٣ ب ما هذا نصه : « كان أبوه (أبو ردبصان) يدعى نهامة وأمه تدعى نهشيران » والصواب : « كان أبوه يدعى نوحاما وأمه تدعى نحشيرام » . ونوحاما لفظة إرمية معناها البعث والنشور

وفى ١ : ٢١٧ ب ٩ عطاء مالك الجوينى . والصواب : عطاء ملك الجوينى ، على ما هو مشهور فى المظان التاريخية

ومن الغريب أن اسم الإمام أبى منصور « الثعالبى » قد صحف إلى « الثعلبى » فى غير موطن (انظر مثلا ١ : ٢٢٣ ب ١٩ ؛ ٣ : ٤٧٣ | ٥ ؛ ٣ : ٤٧٣ ب ١)

وفى ١ : ٢٥٥ ب ٢ ذكر « سوش الرسى » ، ولكن هذا الإسم ورد بصورة « سوسن الرسى » فى معجم البلدان (١ : ٧٣٣ طبعة وستنفلد ؛ مادة : بلغار) .

ومن هذا القبيل تصحيف اسم صدر الدين محمد « الخجندى » الى « الخوجندى » فى ١ : ٢٩١ ب ٢٤ . والخجندى (بخاء معجمة مضمومة ثم جيم مفتوحة وسكون النون ودال مهملة) نسبة الى خجندة ، مدينة بما وراء النهر على شاطىء سيحون (راجع معجم البلدان وكتب الانساب) .

وفى ١ : ٣٠٧ | ٢٢ ذكر « بنى كشير » . وصوابها « بنى قشير » راجع : أخبار النحويين البصريين للسيرافى (ص ١٥ طبعة كرنكو) ونزهة الألباء فى طبقات الأدباء لابن الأنبارى (ص ٧ من طبعة سنة ١٢٩٤ هـ) .

وذكر فى ١ : ٣١١ | ١١ عن أبى بكر بن سعد بن زنكى أتابك فارس أنه من الأسرة « السلغورية » . قلنا : الصواب أن تكتب « السلغرية » (بحذف الواو) وهم على ماجاء فى الكامل لابن الأثير (١٠ : ٢٣٨ طبعة تورنبرج ، حوادث سنة ٤٩٥ هـ) قبيل من التركمان يقالى لهم سلغر.

ومن الأعلام الشرقية التى أصابها التصحيف غير مرة (انظر مثلا ١ : ٣٢٤ | ١٦ ؛ ١ : ٣٢٤ ب ٢ ؛ ٢ : ٥٧ | ٣ و٢٢ و٢٧) هو هرمزد « رسام » الموصلى ، المتوفى سنة ١٩١١ ، الذى نزح الى انكلترة وأحرز شهرة بعيدة بين علماء الآثار العراقية ، وألف تصانيف مختلفة بالانكليزية (راجع ترجمته فى تاريخ الموصل لسائغ (٢ : ٢٧٤ — ٢٧٦) . قلنا : هذا الرجل الذى يكتب اسمه بالانكليزية H. Rassam قد تصحف فى الدائرة الى «رسم» وذلك فى المواطن المشار إليها أعلاه .

وفى ١ : ٣٣٥ | ١٣ لابن حيان . وصوابه : لأبى حيان . وكأن هذا من أغلاط الطبع .

وفى ١ : ٤١٣ ب ٩ ؛ ١ : ٤١٥ | ٣ ديوان أبى نواس طبعة آصف . والذى يرى على غلاف الطبعة المذكورة من الديوان : آصاف .

وقد وقع نظرنا فى ١ : ٤٢١ | ٢٥ على اسم « منيلوس » . قلنا : عرف اسم هذا العالم الرياضى اليونانى فى المراجع العربية القديمة بصورة «منالاؤس» أو«منالاوس» راجع: الفهرست لابن النديم (ص ٢٦٧ طبع ليبسك أو ص ٣٧٤ طبع القاهرة) ، وأخبار الحكماء للقفطى (ص ٣٢١ طبع ليبسك) وتاريخ مختصر الدول لابن العبرى (ص ٦٤ طبعة صالحانى) ، وكشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون للحاج خليفة (١ : ٤٩٠ طبعة ليبسك ، أو ١ : ١٣٤ طبعة استانبول الأولى ، أو ١ : ١٤٣ طبعة استانبول الثانية) .

وفى السطر الأخير من ١ : ٥٠٤ ب ورد اسم « البرازلى » وصوابه : البرزالى . وغالب الظن أنه من أوهام الطبع .

وقد وجدنا طائفة من أسماء المؤلفين الفرنج قد أصابها التشويه من ذلك (١ : ٥٣٠ | السطر الأخير) ريتر O. Ritter والصواب روتر O Reuther وكذلك (١ : ٥٣١ | ١٨) Neibuhr صوابه Niebuhr .

ومن الأعلام الشرقية التى لم تسلم من التصحيف ما ذكر فى ١ : ٥٤٨ | ٥ باسم « جبرييل سيونيتا » وصوابه : جبرائيل الصهيونى ، وهو كاهن مارونى من قرية اهدن فى لبنان . عاش سنة ١٥٧٧ — ١٦٤٨ م . وقد ترجمه الأب أغناطيوس طنوس ، فى المشرق (٣٨ (١٩٤٠) ص ٢٥٣ ـ ٣٠٤) .

ونظيره فى إبعاده عن اسمه الحقيق « يوحنا الحصرونى » (نسبة الى حصرون من قرى لبنان) المتوفى سنة ١٦٣٢ م ، فقد

تصحف اسمه فى الدائرة (١:٥٤٨ا ٦١) الى « جون هسرونيتا » .

وفى ١ : ٥٧١ ا ١٦ ـ ١٨ وردت العبارة التالية : « كما انه حكمها (حكم مدينة إربل فى العراق) ابان الساسانيين حكام استطاعوا أن يستقلوا بحكمها فى فترات متفاوتة ، نذكر منهم تردغ الذى اتخذ حصن ملقى القريب من إربل مقراً لهم » .

قلنا : الصواب فى « قردغ» ان يكتب « قرداغ » وهو أحد مشاهير شهداء الشرق فى العهد الساسانى ، قتل سنة ٣٥٩ م . وللوقوف على ترجمته وأخباره يرجع الى المؤلفات التالية : أعمال الشهداء والقديسين (بالإرمية ٢ : ٤٤٢ـ٥٠٦ طبعة بيجان فى لينسك) ؛ وشهداء الشرق لأدى شير (١ : ٣١١ـ٣٤٥) ؛ وتاريخ كلدو واثور لأدى شير أيضاً (٢ : ٨٧ـ٨٨) ؛ وبزداندوخت لصائغ (ص١١١ـ١٢٤،١٩٣ـ٢٠٢،٣٠٠ـ٣٠٨) و Duval: La Litterature Syriaque (P. 138) و Labourt: Le Christianisme dans L'empire Perse Sous La Dynastie Sassanide 224 - 632 (P. 40) .

وفى ١ : ٥٧١ ب ٧ مظافر الدين تكبرى . وهو تصحيف ظاهر . والمشهور فى الكتب التاريخية : مظفر الدين كوكبورى فقد ضبطه ابن خلكان (وفيات الأعيان ١ : ٦٢٤ طبعة بولاق الأولى) بضم الكافين بينهما واو ساكنة ثم باء موحدة مضمومة ثم واو ساكنة وبعدها راء ، وقال إنه اسم تركى معناه بالعربى ذئب أزرق . ولم ينفرد ابن خلكان بهذا الضبط ، بل تابعه فيه غير واحد من المؤرخين ، راجع فى ذلك : تاريخ أبى الفداء (٤ : ٣٩٨ طبعة ريسكى،أو٣ : ١٥٣ طبعة الحسينية بالقاهرة) والنجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى (٥ : ٣٧٨ و ٦ : ٢٨٢ طبعة دار الكتب المصرية) ، وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى (٥ : ١٣٨) .

على انهذا الاسم وردفى بعض المراجع الأخرى بحذف واوه الثانية ، فقيل« كوكبرى » . راجع: فهارس الكامل لابن الأثير وتاريخ مختصر الدول لابن العبرى(ص٤٠٤) والحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة لابن الفوطى (ص ٤٤ طبعة الدكتور مصطفى جواد) ، والبداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير(١٣٦:١٣) والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى (١ : ٢٤٧ طبعة الدكتور محمد مصطفى زيادة) .

وقد قرأنا فى ١ : ١٧٥٣ ا ١٠ـ١٥ ما هذا نصه : « وهناك مصنف يتعرض لأهمية إربل فى تاريخ بلاد الشام (كذا) الدينى قبل الاسلام ، صنفه كنسى من أسقفية إربل ، ونشره منجانا A. Mingana فى Sources Syriagues جـ ١، ليبسك ١٩٠٨ ودرسه ساخو Sachau فى Abh. der Berl. Akad. D. wissensch ص ١٩١٥ رقم٦ » انتهى .

قلنا : فى هـذه الأسطر المنقولة أمور تحتاج الى تعديل أو إيضاح .

فلفظة « بلاد الشام » لامعنى لها هاهنا ، وهى فى الأصل الفرنسى La Syrie وهى على مايبدو لنا مصحفة عن L' Aassyrie أى بلاد آثور ، فهو مطابق للمطلب .

أما هذا الرجل « الكنسى » الذى صنف الكتاب المشار اليه ، فقد ذهب ناشره الى انه « مشيحا زخا » النسطورى ، ولكن بعض الباحثين من المستشرقين شكوا فى صحة أدلته فلم يوافقوه على رأيه .

وأما « منجانا » فمحرف أيضاً . واسمه الصحيح القس (ثم الدكتور) ألفونس « منكنا » ، وهو امرؤ عراقى ولد فى قرية شرانش من أعمال الموصل فى شمالى العراق ، وبعد أن أنهى دروسه فى الموصل وعاش فيها مدة ، نزح إلى انكاترة فلبث هنالك حتى توفى سنة ١٩٣٧ .

والمصنف التاريخى المشار إليه لم ينشر فى ليبسك كما ورد فى الدائرة ، انما نشر (بنصه الإرمى منقولا الى الفرنسية) فى مطبعة الدومنكان بالموصل وأمره مشهور. كما ان سخو Sachau لم يدرس هذا الكتاب فحسب ؛ بل نقله أيضاً الى الألمانية بعنوان Chronik von Arbela . أما الرقم ١٩١٥ المذكور فى الفقرة المنقولة أعلاه ، فلا يدل على الصفحة ، إنما يدل على سنة طبع تلك الترجمة الألمانية .

(يتبع) كوركيس عواد

في بيـــتى . . .

أصدرت كتب العقاد (١)

للأستاذ عبده حسن الزيات المحامي

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

فإذا سأله صاحبه وهو يحاوره — وأكبر ظني أن هـذا الصاحب ليس إلا العقاد نفسه أو شخصية اختلقها من خلقه على غرار ذاته —: « وكيف توفق بين الوجود الأمثل وبين الشرور والآلام في هذه الحياة ؟ » انفلت من هذا المأزق بقوله : « هذا سؤال غير يسير ، لأننا نحن الفانين لن نرى إلا جانباً واحداً من الصورة الخالدة في فترة واحدة من الزمان ، ومن يدرينا أن هذا السواد الذي يصادفنا هنا وهناك هو جزء لازم للصورة كلزوم النقوش الزاهية والخطوط البيضاء ؟ بغير الألم والخسارة ما الفرق بين الشجاع والجبان وبين الصبور والجزوع ؟ » فإذا حلّق عليه مجادله بهذا السؤال المحير الخالد : « أليس عجزاً أن نشقى وفي الوسع ألا نشقى ؟ أليس عيباً أن نقصر عن الكمال وفي الوسع أن نبلغ الكمال؟ » لاذ المؤلف بإجابة صوفية « كلامية » فقال : « وكيف يكون في الوسع أن يكمل المتعددون ؟ إنما يكون الكمال للواحد الدائم الذي لا يزول » ولكن صاحبه يضيق ذرعاً ويثور ثورة الإنسان في ضعف إنسانيته :« قل ماشئت ، فليس الألم ممايطاق ، وليس الألم من دلائل الرحمة وآيات الخلود الرحيم » . فيطامن المؤلف من ثورته ويسكب عليها شآبيب الهدوء :« إن هذا لصحيح إذا كانت حياة الفرد هي نهاية النهايات ، وهي القياس كل القياس لما كان وما يكون . لكن إذا كانت حياة الفرد عرضاً من الأعراض في طويل الأزمان والآباد — فما قولك في بكاء الأطفال؟ إن الأطفال أول من يضحك لبكائهم حين يعبرون الطفولة ، وإنهم أول من يمزح في أمر ذلك الشقاء ، وليس أسعد الرجال أقلهم بكاء في بواكير الأيام ... يا صاحبي هذا كون عظيم ، هذا كل ما نعرف من العظم ، فإذا لم نسعد به فالعيب في السعادة التي ننشدها ، ولك أن تجزم بهذا قبل أن تجزم بأن العيب عيب الكون وعيب تدبيره وتصريفه وما يبديه وما يخفيه . ولك أن تنكر منه ما لا تعرف ، ولكن ليس لك أن تزعم أنه منكر لأنه مجهول لديك»

(١) ظهر للعقاد بين كتابة هذا المقال ونشره كتاب جديد عن بلال

وعلى هذا النحو الصعب الذي يثير ملكات التفكير والنقد يقطع السائح أكثر رحلته وراء « ريس » معتز بقدرته ، واثق من نفسه ، يأبى إلا أن يقتحم قلل الصخور اقتحاماً ، ولو كانت عنها ندحة من طريق سواء ، وسط ريح رخاء . على هـذا النحو يعرض لفلسفة النسك ، ويعرض للماركسية ودعوتها العالمية ، ويعرض للنازية والفاشية والشيوعية ، ثم يضرب بسهم واحد هذه الفلسفة الماركسية وهذا المذهب الشيوعي حين يقول : « فإن كان للنبوءات الماركسية فضل بعد هذا في ثورة الروس ، فذلك هو الفضل المعكوس ، لأن المؤمنين بها حاولوا تطبيقها كما آمنوا بها ، فضيعوا عشرين سنة في هذه التجارب المخيبة ، وضاعت معها ملايين الأرواح التي فنيت بالسلاح أو فنيت بالقحط والوباء ، ثم آل بهم الأمر إلى إقرار ما أنكروه وحاربوه وقتلوا الملايين من أجله ، وهو اقتناء الملك وإيداع المال في المصارف وتوريث الأبناء وإباحة الفروق في المعاش وإعلان العصبية الوطنية »

ولا يلهيه هذا عن التنديد بالجشع الذي يتملك بعض الرأسماليين وينتهي إلى التبشير بالتعاون ترياقاً وحيداً ، وهو « التعاون بين الأمم كبارها وصغارها ، والتعاون بين الطبقات غنيها وفقيرها ، والتعاون بين السلطات والتعاون بين الأفراد » . ومن قبل رأينا العميد « ديجي » يعتنق مذهب التضامن الاجتماعي ويتخذه أساساً لكل تشريع ، ولا يرى للفرد إلا حقاً واحداً ، هو أن يمكن من أداء واجبه في تحقيق هذا التضامن

وبمثل هذا الدرس والتقصي يعالج العقاد مذاهب التصوير ، ويتناول الإحساسيين باللوم المرير ، وهـذا إن لم تخني الذاكرة رأي له قديم سبق أن أبداه منذ نحو خمس عشرة عاماً في بعض « ساعاته بين الكتب » أو « مطالعاته »

— ٢ —

وثانية الملاحظات التي أحب أن أدونها أني شعرت وأنا أقرأ هذا الكتاب شعوراً قوياً بأن العقاد محام من الطراز الأول لمحامي المذكرات المتفوقين ؛ وقوته في المحاجة ، ومصارعة الخصم تظهر على أتمها في القضايا الصعبة حين يكون مركزه أضعف المركزين ، أو حين تكون النقطة التي يدافع عنها دقيقة مفتقرة إلى مجهود جبار في التجلية والبيان . إنه لم يحتج إلى عناء كثير لكي ينتصر

على الدعوة الماركسية والمذهب الشيوعى ، ولا احتاج إلى عناء كبير لـكى يبرهن على الفشل الختامىّ للطريقة التى اتبعتها النازية والفاشية لحل أزمة البطالة بإنشاء طوفان من صناعات الحرب ، ولـكنه كان محتاجاً إلى قوته الجدلية « فوق العادية » فى مواقف أخرى كموقفه من أسئلة صاحبه المحرجة عما وراء الطبيعة وسر الوجود ، وموقفه فى الدفاع عن البومة المسكينة التى ظفر لها لأول مرة فى التاريخ بحكم البراءة من تهمة النحس اللاصقة بها على الأجيال ، وموقفه إزاء اعتراض صاحبه حين استمع إلى المفاضلة بين جمال الدين ومحمد عبده : قال العقاد إن الأول أعظم أثراً وإن الثانى أعظم نفساً . فسأله صاحبه بمَ ؛ فأجاب «بالإيثار» .فقال دهشاً : « ومحمد عبده الذى تسنم المناصب ولم يحرم نفسه متعة الأبوة والزواج أعظم إيثاراً من جمال الدين ؟ » إن الاعتراض قد أصاب المحز وظن القارئ أن المحامى قد أسقط فى يده ، ولـكن المحامى القدير مستعد بالجواب : « قلت : قد تـكون العزوبة مزيداً من الاعتداد بالشخصية ، وقد تـكون الأبوة مزيداً من الإيثار »

— ٣ —

وإذا كنت قد أحسست فى بعض المواضع أنى أمام محام قدير فإنى قد أحسست فى مواضع أخرى أنى أمام قريحة فقهية متمكنة ، فإنّ من خير مزايا الفقيه أن يميز بين المتشابهات ، فلا تنبهم عليه الأمور حين تتشاكل . هذا الإحساس الدقيق بالفروق الناعمة ثم هذه القدرة الجبارة فى تجلية الفروق و « تجنيب » كل مشتبه على حدة ، هما أمران يطالعاننا فى مواضع كثيرة من الـكتاب وحسبى أن أسوق أمثلة وأشير إلى أخرى : اسمع إليه حين ينحى صاحبه باللائمة على الموسيقى الشرقية لأنها لا تصور المعانى ويندفع إلى حيث يقول : « إنما يسوغ التعبير الموسيقى فى معانى المذاهب الفلسفية عند طبائع الغربيين ولا يسوغ عند طبائعنا نحن الشرقيين » . فيجيبه العقاد : « لا أحب أن أظلم الطبائع الشرقية ولا أود أن أفرد الطبائع الغربية دون سواها بتلك الفضيلة ، فإن الموسيقى الغربية لم تـكن من قديم الزمان على هذا الطراز الذى نسمعه من بتهوفن وأمثاله . ولعلنا نقترب إلى الإنصاف وندنو من التحقيق حين نقسم الموسيقى إلى منهجين يختلفان باختلاف الذوق والبديهة ولا نقسمها إلى إقليمين جغرافيين بين أناس فى الشرق ، وأناس فى الغرب ، أو أناس فى الشمال ، وأناس فى الجنوب » .

ثم استمع إليه يبين فضل عظماء الموسيقى إلى جوار عظماء السياسة والاجتماع : « لا تحسبنّـه حتما لزاماً أن يكون زعماء الاجتماع أو السياسة أعظم من زعماء الفنون ، لأن المعول على الـكفاءة اللازمة للعبقرية لا على أثرها فى مواطن الجاه والسلطان ، وليست حاجة الناس إلى الشيء هى مقياس العظمة فيه لأن الناس يحتاجون إلى سنابل القمح ويستغنون عن اللؤلؤ والزمرد » .

ثم تأمل حواره مع صاحبه فى دلالة المطبخ على الأخلاق والتمييز بين « المطبخ الذى يستخدم للغذاء والذى يستخدم للذة الطعام » وتأمل تحديده لـكُنهِ التعصب الوطنى المقبول من الفنان وتمييزه بين التشاؤم البانى والتشاؤم السلبى الهدام .

— ٤ —

ومما يأخذ نظر القارئ لهذا الـكتاب وفرة الصور المادية التركيبية التى يستغلها المؤلف للايضاح والإقناع كقوله : « أليس الذين يتعجلون النعم ، فيخيل إليهم أن ازدحامها خير من تفرقها وأجمع لمحاسنها يخطئون كما يخطئ الذين يتعجلون النغم فيحسبون أن مائة لحن فى وقت واحد خير من اللحن الفرد وأوفى ؟ شيء واحد فى وقت واحد ، وجميع الأشياء فى جميع الأوقات ، وهذا هو نظام العيش وقوام الجمال فى كل نفع وكل سرور » .

ومن هذا القبيل قوله فى معرض الفصل بين عبقرية كاتب القصة أو « الرواية » على حد تعبيره المستحدث وبين مقدار محصوله فى الرواية : « إن الحديقة التى تنبت التفاح لا يلزم أن تـكون فى خصبها ووفرة ثمراتها أوفى من الحديقة التى تنبت الجميز أو الـكراث ، ولـكن الجميز والـكراث لا يفضلان التفاح وإن نبتا فى أرض أخصب من الأرض التى تنبته وتزكيه » .

ونشير إلى مثل ثالث دون أن نقتبسه وهو مثل القطار المندفع إلى هاوية يصلها بعد زمن محسوب . وقد مثل بهذه الصورة للنتيجة الحتمية التى زعمها المذهب الماركسى ، ولـكن فى هذا المثل تهكما عقادياً لاذعاً وسخرية قاتلة نقابلها مرة أخرى فى هذا الحوار الخيالى البديع الذى افترض الـكاتب وقوعه بين خريستوف كولمبوس ، وبين موظف المـكتب الشيوعى حين يستأذنه فى

الخروج لرحلة الكشف .

— ٥ —

ولكنى أتأمل فيما كتبت فلا أجد إلا مدحاً وتقريظاً . ولقد عرف قاسم أمين قضاة حكموا ظلماً ليشتهروا بين الناس بالعدل فإن ركبت شيئاً من الحيف فليس طلباً لسمعة العدل وإنما هروباً من تهمة المحاباة . فلتدقق إذن عين النقد لعلها أن تظفر ببعض الأشتى :

ا — لقد عرض المؤلف لقدرة الأمم على العمل والقول وقرر بحق أنه « لا تناقض بين القدرتين » ثم أرسلها قضية عامة حاسمة فقال : « إنه لم توجد قط أمة عرفت كيف تعمل إلا عرفت كذلك كيف تقول » فهل النسبة محفوظة دائماً بين القوتين ؟ ولقد ضرب الأستاذ مثلا من أمة الإنجليز فقال إنهم فى العصور الحديثة أطبع الأمم على مراس الواقع والعناية بالفكر العملى والخلائق العملية » ومع ذلك « فليس هناك أمة من جيرانهم ومنافسيهم سبقتهم فى مضمار الشعر ، وأنجبت نصف من أنجبوه من عباقرة الشعراء » .

ولا اعتراض لى على هذا المثل ولكن ما الرأى فى أمة اليابان ؟ أترى عندها من « منتجات القول » ما يتكافأ وما عندها من منتجات العمل ؟ وإذا وازنا بينها وبين الصين والهند من هذه الناحية فهل نصل إلى حل يعزز الأمثلة التى أوردها الأستاذ ؟

ب — وأمر آخر : لقد سبق إيراد المفاضلة بين الأفغانى ومحمد عبده ، ولكن المؤلف لم يقم الحجة فى كتابه على هذا الترجيح أى ترجيح الثانى من جهة العظمة النفسية ، وحين سيق إلى المؤلف اعتراض صاحبه الوجيه تخلص منه مجرد تخلص بارع ولكنه لم يهدم قوة الاعتراض . وأنا أعلم أن الرحلة سريعة وأن حيز الكتاب ضيق ، وأن الأستاذ المؤلف يود أن يخرج كتاباً مطولاً عن محمد عبده ، ـ ولكنى أرى بالرغم من ذلك كله أن واجب الإنصاف لشخص جمال الدين كان يقتضى المؤلف الإدلاء بحجته ما دام قد عرض للأمر وأدلى فيه بحكم .

ولم يفضل المؤلف محمد عبده من هذه الناحية على الأفغانى فقط ، ولكنه فضله كذلك على سعد زغلول . وإنى لأحس فى دخولى بين سعد والعقاد فضولا فحسب؛ والعقاد كتابه الخالد عن سعد ، ولكنى مع ذلك ظللت من الوجهة العلمية جاهلا بحيثيات الحكم فغير مسلم به . هل يكتب لهذا الاعتراض أن يكون استحثاثاً للأستاذ الكبير أن يسرع فى إخراج كتابه عن الأستاذ الإمام فنقرأ فيه بيان هذا التفضيل ؟

حـ — وعرض الأستاذ للتفسير السيكولوجى لمؤيدى الشيوعية فرد تأييدهم إلى الحسد والحقد وفسر بذلك أن « يكون فلان من الشيوعيين وهو سليل بيت قديم وصاحب مال موفور فإنه يحسد أمثاله وينقم على الدنيا لأنه لا يحسب فيهم حين يحسب ذوو الكلمة أو ذوو الرأى أو ذوو المنصب والجاه » ـ وهذه نظرة صائبة دقيقة ولكنها لا تفسر لنا شيوعية بعض الناجحين الذين طالوا من المجد والمال وبعد الصوت والنفوذ ما يحسدهم عليه أناس أجدر منهم ، ثم لا يكون الحاسد شيوعياً ، ويكون المحسودون شيوعيين . وأغلب الظن أن هؤلاء يتاجرون ليصبحوا أدنى إلى أفئدة الجماهير ومهوى قلوب وأصوات الجماعات فهى نزعة ديماجوجية يراد بها مزيد من الشهرة وفضل جديد من السلطان .

ء — وقد سبق إيراد المثل الخاص بسنابل القمح واللؤلؤ . ولكن نفاسة اللؤلؤ ليست نفاسة ذاتية وإنما هى نفاسة نسبية وعرضية مردها الندرة ؛ فلو أصبح اللؤلؤ فى كثرة السنابل فما أظنه يحتفظ بنفاسته الحالية ، ولو أصبحت السنابل فى ندرة اللؤلؤ لجاز أن تظفر بمثل نفاسته .

هـ — ونعى على القصص والروايات قلة محصولها مع كثرة أداتها ، ومثل ببعض الصور الرائعة التى تضمنها بيت واحد من الشعر « وأن خمسين صفحة من القصة لا تعطينا مثل محصوله » .

وليس لى ما ألاحظه فى هذا الشأن إلا أنه غير منطبق على نوع خاص من الأقاصيص يضخم مغزاه ويكثر محصوله فى حين أن أداته قصيرة قليلة كخرافات « إزوب » و « لافونتين » .

و — وهذا الانتقاد الختامى لا أعرف إلى من أتوجه به ، فإن الأخطاء المطبعية كثيرة وقد أصبحت كالبقعة وسط هذا الكتاب القيم النفيس ووسط هذا الورق الأنيق ؛ لقد أحصيت بين صفحتى ٩٠ و ١٣٢ نحواً من اثنتى عشرة غلطة ، وليس هذا نقصاً كبيراً ولكنه نقص فى حق القادرين على التمام .

عبده حسن الزيات
المحامى

القصة عنـــد العقاد

للأستاذ نجيب محفوظ

الفن — أياً كان لونه وأياً كانت أداته — تعبير عن الحياة الإنسانية، فهدفه واحد وإن اختلفت كيفية التعبير تبعاً لاختلاف الأداة، وكل فن فى ميدانه السيد الذى لا يبارى، ففى عالم اللون التصوير سيد لا يعلى عليه، وفى دنيا الأصوات الموسيقى سيد لا يدانى وهكذا، فالفنون جميعاً تتفق فى الغاية وتتساوى فى السيادة كل بحسب مجاله، وهى فى مجموعها تكون دنيا الأفراح والمسرات والحرية، حيث يعيش أبناؤها على وفاق ومحبة وتعاون، لا يكدر صفوهم مكدر إلا أن يتصدى رجل كبير كالعقاد لدنياهم المطمئنة، فيرمى بحيرتها الساجية بحجر ثقيل يطين رائقها، ويبعث الثورة فى أطرافها، فيقول: إن هذا اللون من الفن راق وذاك منحط، هذا عزيز وذاك مبتذل، يقول هـذا وهو أعلم الناس بالفنون، وأحبهم لها، وأحقهم بأن يعرف لكل قدره ومنزلته. ولن يفيد الفن شيئاً من تحقيره لبعض أنواعه، إلا أن يغضب قوماً أبرياء يحبون الحق كما يحبه ويولعون بالجمال كما يولع به، ويبذلون فى سبيل التعبير عنه كل ما فى طاقتهم من قدرة وحب. وعسى أن يقول قائل: إن العقاد ما قصد التحقير، ولكنه مفكر وله الحق كل الحق أن يرتب الفنون عامة أو فنون الأدب خاصة كيفما يرى. وهذا حق فى ذاته، ولكنى فى هذه القضية رأيت العقاد الخصوم يتغلب على العقاد الناقد. انظر إليه وقد لاحظ حواريه «فى بيتى العقاد» صغر نصيب القصص من مكتبته فأجابه قائلا: «... لا أقرأ قصة حيث يسعنى أن أقرأ كتاباً أو ديوان شعر، ولست أحسبها من خيرة ثمار العقول». فالرجل الذى لا يقرأ قصة حيث يسعه أن يقرأ كتاباً أو ديوان شعر ليس بالحكم النزيه الذى يقضى فى قضية القصة. والرجل الذى يلاحظ على مكتبته صغر نصيبها من القصة ينبغى أن تكون القصة آخر ما يرجع إليه فى حكم يتصل بها. بل إنه يفضل النقد — لا الشعر والنثر الفنى وحسب — على القصة. والمعروف أن النقد ميزان لتقويم الفنون، فكيف يفضل على أحدها؟! وهل تنزل القصة هذه المنزلة عند شخص إلا إذا كان لها كارهاً وعليها حاقداً؟! فحكم العقاد على القصة حكم مزاج وهوى لا حكم نقد وفلسفة. بيد أنى أريد أن أتناسى ذلك، وأريد أن أنظر نقده بعين مجردة، لأن لكلام العقاد قيمة خاصة عندى، ولو كان مصدره المزاج والهوى

قال العقاد لصاحبه وهو يحاوره: «... إننى أعتمد فى ترتيب الآداب على مقياسين يغنيانى عن مقاييس أخرى، وهى الأداة بالقياس إلى المحصول، ثم الطبقة التى يشيع بينها كل فن من الفنون ... ما أكثر الأداة وأقل المحصول فى القصص والروايات؟ إن خمسين صفحة من القصة لا تعطيك المحصول الذى يعطيكه بيت كهذا البيت:

وتلفتت عينى فمذ بعـدت عنى الطلول تلفت القلب

إلى أن قال: «أما مقياس الطبقة ... فلا خلاف فى منزلة الطبقة التى تروج بينها القصة دون غيرها من الفنون الخ»

هذان هما المقياسان اللذان قضى بهما العقاد على القصة بالهوان وما هى القصة؟ هى سيدة فنون الآداب دون منازع لثلاثة قرون خلت من أزهى عمر البشرية، هى الفن الذى جذب إليه أكبر عبقريات الأدب فى جميع الدنيا المتحضرة المثقفة. فما حقيقة هذين المقياسين؟

أما عن الأداة والمحصول، فالحق أنهما شىء واحد فى كل فن رفيع، ففى الشعر الجيد كما فى القصة الجيدة تتحد الأداة والمحصول، وهذا يتفق ومعنى البلاغة الذى يقول فيه الزيات: «إنها هى البلاغة التى لا تفصل بين العقل والذوق ولا بين الفكرة والكلمة ولا بين الموضوع والشكل». ذلك المعنى الذى أعجب به العقاد أيما إعجاب (الرسالة رقم ٦٣١). ففى الفن الجيد — قصة كان أو شعراً — ينمحى التنافر بين الأداة والمحصول، فإذا زادت الأداة على المحصول فذلك شاهد ضعف أو ركاكة قد يعتوران الشعر كما قد يعتوران القصة، ولكنه ليس صفة ملازمة للقصة دون غيرها من فنون الأدب، فهذا المقياس نافع للتمييز بين الجيد والردئ من آيات الفن الواحد، لا للموازنة بين الفنون المختلفة، لأن كل فن فى ذاته يشترط الانسجام الكلى بين أداته ومحصوله. إذاً كيف يرى العقاد كثرة الأداة وقلة المحصول صفة ملازمة للقصة؟! لا أجد لذلك تفسيراً إلا إذا كان العقاد يعد التفاصيل فى القصة زيادة فى

الأداة ، وإلا إذا كان يعتبر القصة عملا أدبياً مطولا ذا مغزى يمكن تلخيصه في بيت واحد من الشعر . وهذا تفسير عجيب إن صح . فالقصة لا ترمى لمغزى يمكن تلخيصه في بيت من الشعر ، ولكنها صورة من الحياة ، كل فصل منها يمثل جزءاً من الصورة العامة ، وكل عبارة تعين على رسم جزء من هذا الجزء ، فكل كلمة وكل حركة تشترك في إحداث نغمة عامة لها دلالتها النفسية والإنسانية ، وكل جملة — في القصة الجيدة — تقرأ وتستعاد قراءتها ولا يغني عنها شيء من شعر أو نثر . ولا تحسين التفاصيل في القصة مجرد ملء فراغ ، ولكنها ميزة الرواية حقاً على فنون القصة الأخرى وفنون الأدب عامة . وهي لم توجد اعتباطاً ولكنها جاءت نتيجة لتطور العصر العلمي العام ، فالعلم هو الذي وجه الانتباه للأجزاء والتفاصيل ، بعد أن ركزته الفلسفة طويلا في الكليات . اكتشف العلم لكل جزء من أجزاء المادة — حتى الذرة — حياة وأهمية ، وبدت آثار هذه النزعة العلمية في عالم الآداب في عناية الرواية بالتفاصيل ، لم يعد الأدب يكتفي بتحضير الأقراص المركزة ، وأدرك أن التفاتة أوفلتة لسانية أوحال إنسان وهو يتناول طعامه ، كل أولئك أمور لها دلالتها النفسية وتعبيرها الصادق عن الحياة . ومن عجب حقاً أن العقاد يعلم ذلك كله ، وأنا أذكر أنه كتب مرة — لا أدري متى ولا أين — عن توماس مان ، فأشار إلى تفاصيله الدقيقة في رواياته وبراعتها في الدلالة والتأثير ، فكيف يساوي بيت من الشعر خمسين صفحة من قصة ؟ بل هل نغالي إذا قلنا إن صفحة من قصة تحتاج لعشرات البيوت من الشعر لتحيط بدقائقها وجمالها ؟ خذ مثلا هذا البيت من الشعر الذي استشهد به العقاد « وتلفتت عيني ... » ولنفرض أننا نريد أن نستوحيه أقصوصة ، فما ذا نصنع ؟ أما الشاعر فقد تصور المعنى وليس هو بالبعيد المنال وصبه في هذا القالب الجميل . أما القاص فينبغي أن يتصور إلى ذلك ذكراً وأنثى ، ويتخيل لكل منهما نموذجاً بشرياً خاصاً ، وعليه أن يصور زماناً ومكاناً ، وموقف وداع ، تارة محسوس تلتفت فيه الأعين ، وتارة معنوي يتلفت فيه القلب . فليس هذا العرض هو نفس البيت ولا أكثر ، ولكن العلاقة بينهما كالعلاقة بين الشجرة النامية ذات الزهر والثمر والبذرة الضئيلة . لقد رمى بعض المتعصبين للأجناس العرب بضعف الخيال والعجز عن الإبداع والتحليل والتفصيل والاكتفاء بتصور المعاني وتركيزها ، فهل يريد العقاد أن يؤيد هذه الأقوال الجائرة ؟ ! والواقع أن الإبداع الفني لا يتمثل في عمل أدبي كما يتمثل في أدب القصة . ولذلك اتخذ أغلب السفر الخالد صورة من صور القصة كالملحمة والتمثيلية . هذا بعض مايقال في القياس الأول

وأما المقياس الثاني ، فهو مقياس الطبقة ، يريد العقاد أن يقول : إن القصة تنتشر في طبقة لا يتنازل إليها الشعر ، وإذاً فالشعر أرقى من القصة . وهذا قول وجيه من الظاهر ! ولكنه لا ينطوي على شيء خطير ، فمجرد انتشار فن في طبقة لا يدل على شيء ما لم نبحث أسباب انتشاره . فالموسيقى تنتشر في جميع الطبقات حتى بين الأميين ؛ فهل يقال إن النحت مثلا أرقى منها لأنه لا يكاد يتذوقه إلا رواد المتاحف ؟ ! ثم ما هي القصة المنتشرة حقاً ؟ أليست هي قصة الجريمة والمخاطرة والغرام المبتذل ؟ وكل أولئك ليس من القصة الفنية في شيء . القصة الفنية — كما يعلم الدارسون لهذا الفن — حكاية تروى كالقصة المبتذلة ، إلا أنه يشترط فيها أن تعرض في ثنايا روايتها قيمة إنسانية أو أكثر كتصوير الشخوص وتحليل النفس والشاعرية والفكاهة والمعاني الفلسفية والآراء الاجتماعية ، بل من القاصين المحدثين من يستهين بالحكاية ويقنع بالقيم ، فإذا خلت القصة من هذه القيم ، فهي حكاية وليست قصة فنية ، ولا يجوز لمنصف أن يحكم بها على هذا الفن وإلا جاز لنا أن نحكم على الشعر ببعض الأزجال الجنسية التي يحفظها العوام .

أجل إن القصة لا تزال أعظم انتشارا من الشعر ولكن أكان ذلك لسيئة فيها أم لحسنة ؟ إن الخاصة التي تقرأ الشعر الرفيع وتتذوقه تقرأ القصة الرفيعة وتشغف بها ، وإذا كان العقاد لا يقرأ القصة إلا مضطرا فطه والمازني والحكيم وإزنهاور يقرءونها بغير اضطرار . ولئن انتشرت القصة في طبقات أخرى فما ذلك لسيئة بها ولكن لحسنتين معروفتين : سهولة العرض والتشويق . فانتشار القصة الجيدة بين قوم لا يهضمون الشعر الجيد مرده الى أن القصة في ظاهرها حكاية تروى يستطيع أن يستمتع بها القارىء العادي لسهولتها وتشويقها . وليس بالسهولة من عيب يجرح الذوق السليم ، ولا بالتشويق من انحطاط يؤذي الفهم الرفيع

الشرق كما يراه الغرب

٢ - المـــوالد المصرية

للأستاذ أحمد أبو زيد

قلنا إن المولد فى أصله احتفال دينى بعيد أحد الأولياء ... ولا تزال الموالد حتى الآن — على الرغم مما طرأ عليها من التغير وما داخلها من عناصر اللهو — تحتفظ بالكثير من الملامح الدينية التى تتمثل على الخصوص فى شدة إقبال الناس على ضريح الولى صاحب الاحتفال للتبرك به والطواف حوله واتخاذ ذلك وسيلة للتزلف والتقرب إلى الله ... ومن الناس من ينتبذ من المسجد جانباً يخلو فيه لنفسه ، يرتل القرآن ، أو يتوجه بالدعاء إلى الله ؛ ومنهم من يشترك فى حلقات الذكر التى تقام كل ليلة من ليالى المولد فى المسجد ؛ ومنهم من يتخذ الإحسان وسيلته إلى الله .. والموالد سوق رائجة للاحسان يدلى فيها كل محسن محب للخير بدلوه حسب قدرته وطاقته ؛ فأغنياء الحى الذى يقع فيه ضريح الولى ينحرون الذبائح ويولمون الولائم ويوزعون الطعام والملابس والصدقات على الفقراء والمعوزين — وما أكثرهم فى مصر !.. ومن هم دون ذلك قدرة وثراء من أوساط الناس يسلكون سبلا غريبة للاحسان ؛ فبعضهم يشترى قربة ماء ليسقى الناس ، أو يشترى (دورقا) من التمرهندى أو العرقسوس ، أو (الدندرمة) يوزعها عليهم ، وهم يبتغون من ذلك رضا الولى ومرضاة الله .

ومن الطرق الغريبة التى يلجأ إليها الناس فى مصر للاحتفال بالموالد أن الحلاقين — مثلا — يتبرعون بإجراء عملية الختان لأطفال الحى الفقراء بالمجان أو بأجر زهيد جداً لا يتجاوز بضعة قروش . ويعلق كل « حلاق » من هؤلاء لوحة كبيرة على واجهة حانوته كتب عليها (الطهارة للفقراء مجاناً) ، وإلى جانبها يعلق صورة تمثله وهو يختن أحد الأطفال . ويزين الحلاقون لهذه المناسبة حوانيتهم بالمصابيح الكهربائية الملونة والأعلام الزاهية لكى يجذبوا إليهم أنظار الناس . ويذهب بعض الحلاقين إلى أبعد من ذلك ، إذ يعدون لأنفسهم حوانيت متنقلة ينتقلون بها من مولد لآخر، بل ومن بلدة لأخرى ، لكل من يتقدم من الفقراء .

ومن الظاهرات الشعبية ذات اللون الدينية الخطابة الدينية فى الشوارع . فكثيراً ما يقوم بعض المشايخ من رجال الدين ، أو حتى بعض المتحمسين من عامة الشعب فيخطبون الناس على قارعة الطريق ، يحثونهم على الفضيلة ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر ، وهم فى ذلك يصدرون عن قوة إيمانهم وشدة غيرتهم على الدين . ومن هنا كانت خطبهم تأتى فى أغلب الأحيان قوية حارة عنيفة صادرة عن القلب وتجد طريقها إلى قلوب السامعين

وهى بعد ذلك تحوى قيما إنسانية كالشعر الرفيع يتذوق كل قارىء منها على قدر استعداده . وحسب القصة فخرا أنها يسرت الممتنع من عزيز الفن للافهام جميعا ، وأنها جذبت لسماء الجمال قوما لم يستطع الشعر على قدمه ورسوخ قدمه رفعهم إليها ، فهل يكره العقاد ذلك أو أنه يحب كأجداده كهنة طيبة أن يبقى فنه سرا مغلقا إلا على أمثاله من العباقرة ! !

ولعله توجد أسباب أخرى تفسر لنا انتشار القصة هذا الانتشار الذى جعل لها السيادة المطلقة على جميع الفنون الجميلة ، ولعل أهم هذه الأسباب ما يعرف بروح العصر . لقد ساد الشعر فى عصور الفطرة والأساطير ، أما هذا العصر ، عصر العلم والصناعة والحقائق ، فيحتاج حتما لفن جديد ، يوفق على قدر الطاقة بين شغف الانسان الحديث بالحقائق وحنانه القديم الى الخيال ، وقد وجد العصر بغيته فى القصة ، فاذا تأخر الشعر عنها فى مجال الانتشار فليس ذلك لأنه أرقى من الزمن ولكن لأنه تنقصه بعض العناصر التى تجعله موائما للعصر ، فالقصة على هذا الرأى هى شعر الدنيا الحديثة . وسبب آخر لا يقل عن هذا فى خطره هو مرونة القصة واتساعها لجميع الاغراض ، مما يجعلها أداة صالحة للتعبير عن الحياة الانسانية فى أشمل معانيها . لذلك توجد قصة عاطفية ، وقصة شعرية ، وقصة تحليلية ، وقصة فلسفية ، وقصة علمية ، وقصة سياسية ، وقصة اجتماعية . ولعل الشمول فى التعبير يكون مقياسا أصدق من المقياسين اللذين يقترحهما الأستاذ الكبير، ودلالته واضحة فى أن القصة أبرع فنون الأدب التى خلقها خيال الانسان المبدع فى جميع العصور .

نجيب محفوظ

فى غير مشقة ولا عسر . ويخص ماكفرسون بالذكر شيخاً أعمى يدعى الحاج حسين له مقدرة خطابية فائقة وقدرة عظيمة على اجتذاب الناس إليه . ويذكر ماكفرسون أنه شاهده مرة فى مولد السلطان الحنفى يخطب الناس والمطر ينصب من فوقهم انصبابا ، والشيخ مع ذلك ماض فى خطابته لا يتريث ولا يتـوقف ، والناس منصتون إليه لا يفكرون فى الانفضاض من حوله .

ومن هذه الظاهرات أيضا إقبال الناس على اقتناء الأحجبة والطلاسم والرقى ابتغاء التبرك ودفع الشر والأذى . والدراويش هم الذين يقومون بكتابة هذه الأحجبة لمن يطلبها من أفراد الناس . ويشهد ماكفرسون بأن الدراويش يقومون بذلك العمل رغبـة منهم فى فعل الخير فحسب ؛ فهم لا يتخذون من غفلة الناس وسذاجتهم وسيلة لجمع المال ، إذ أن كثيرين منهم يرفضون أن يأخذوا أجراً على ما يكتبون ، والبعض الآخر لا يتناولون إلا أجراً قليلا تافها ؛ ومنهم من يقنع بكتابة عدد معين من الأحجبة لا يتعداه بأى حال ومهما اشتد عليه الإقبال .

ولكن كل هذه الظاهرات ، على جلال معناها الدينى — ليست هى الظاهرة المميزة للموالد ؛ إنما الظاهرة الأساسية التى تمتاز بها الموالد هى سلسلة الحفلات الدينية التى يقوم بها كل ليلة من ليالى المولد جماعة الصوفية والدراويش . وهذه الحفلات يشرف عليها أحد مشايخ الطرق ؛ ويكون فى الغالب من نسل الولى نفسه . وقد يكون أحد تلاميذه الروحيين ؛ فإن تعذر ذلك عهدت الحكومة بهذه المهمة إلى أحد كبار العلماء .

ونظام الدراويش نظام قديم من نظم الصوفية كان موجوداً فى أيام أبى بكر صهر الرسول (ص) ؛ فهو بعيد كل البعد عما يلحقه النـاس إليه من ضروب الشعوذة وفنون الدجل . ونظام الدراويش نظام متماسك له تعاليم متوارثة ؛ لأن الدرويش لا يصبح درويشاً حتى يمر بمراحل معينة ؛ فهو يكون فى الأصل طالب ثم يرتقى إلى درجة أعلى فيصبح مريداً يتلقى العـلم الروحى على يد مرشد يلقنه الأوراد والأذكار حتى يحصلها جميعاً فيسلمه (سنداً بسلسلة) والسند عند الصوفية بمثابة شهادة تشهد بأن السلسلة (وهى رمز التسلسل الروحى الذى يربط الدراويش بمؤسس الطريقة ثم بالنبى عليه الصلاة والسلام) وحدة لا تنقطع — ولـكن مع أن نظام الدراويش يرجع إلى أيام الإسلام الأولى ، فإن تنظيمهم ذلك التنظيم الرائع الذى ظلت عليه طول هذه القرون ، يرجع الفضل فيه إلى سيدى عبد القادر الجيلانى (من رجال القرن السادس الهجرى) . ومن هنـا كانت الطريقة القادرية هى الطريقة الأصلية ، وعنها تفرعت طريقتان رئيسيتان هما السعدية والرفاعية . ويشتهر رجال الطريقة الأخيرة بوسيلتهم الغريبة فى التغلب على الآلام وقهرها ، إذ يمشون على النـار ويلتهمون الجمر ويأكلون الزجاج ويبتلعون الحيوانات السامة وما إلى ذلك دون أن يصيبهم أدنى ضرر أو أذى .

فهذه الطرق الصوفية وغيرها (وفى مصر حوالى مائة طريقة) هى التى تحتفل فى الواقع بالموالد احتفالا دينياً له صبغته الخاصة ، وهى التى تضفى على الموالد ثوباً رائعاً مميزاً . ففى كل ليلة من ليالى المولد تتوجه بعض هذه الطرق إلى المسجد فتعقد حلقات الذكر والإنشاد حتى ينقضى شطر كبير من الليل ؛ ويستمر ذلك طيلة المدة المرخص بها للاحتفال — وهى أسبوع فى العادة — حتى تأتى الليلة الأخيرة — أو ليلة الخاتمة — وهى الليلة التى يفترض أنها ليلة ميلاد الولى ، فتتجمع الطرق الصوفية كلها فى إحدى الساحات أو الميـادين ثم تنتظم على شكل (زفة) يتقدمها رجال البوليس وفرق الموسيقى ، وينتظم فيها (أولاد أبو الغيط) وهم يرقصون رقصاتهم الجميلة ، والدراويش بملابسهم الملونة الزاهية (وطراطيرهم) الخضراء ، كما يسير فيها أيضاً بعض الحواة والمشعوذين ... وتتقدم كل طريقة البيارق (جمع بيرق) التى تدل عليها ، وقد نقش عليها أسماء النبى (ص) والخلفاء الراشدين ، أو اسم الطريقة واسم مؤسسها والطرق الصغيرة المتفرعة عنها . وتسير الزفة — وقد توسطها الخليفة — متجهة نحو ضريح الولى فى ضجة كبيرة تختلط فيها أنغام الموسيقى بقرعات دفوف الصوفية وأصوات (الكاسات) و (النقارات) بنغمات الأرغول و (الزمارة) وغير ذلك من الآلات الموسيقية التى يستخدمها الصوفية والدراويش . ويتوقف موكب الزفة من آن لآخر فى الطريق كى يتسنى للناس فى المنازل التفرج والمشاهدة ؛ وبعد لأى تصل (الزفة) إلى المسجد ... وهكذا يختتم المولد وتنتهى لياليه ، ويصبح الصباح فإذا الزينات ومعالم الأفراح قد زالت وعاد كل شىء إلى ما كان عليه .

غير أن الناس قد يستمرون فى احتفالاتهم ومباهجهم أسبوعا

الحياة الادبية في الحجاز

نهضة الشعر

للأستاذ أحمد أبو بكر ابراهيم

كان الشعر الحجازى قد أصابه الركود كما أصاب غيره فى الأقطار الأخرى ، وقنع شعراؤه بتقليد ضعاف الشعراء فى عصور الاضمحلال الأدبى ؛ فوقفت المحسنات البديعية فى طريق تجويدهم وإبداعهم ، وأضاعوا وقتهم واستنفدوا مجهودهم فى التشطير والتخميس ، وظل الشعر على هذه الحال حتى عزته ثورة التجديد فتخلص من هذه القيود التى كبلته الزمان الطويل ، وقد وصف الأستاذ أحمد العربى حال الشعر الحجازى قبل نهضته فقال : « لم يكن الأدب الحجازى سوى بضع منظومات وكتابات سقيمة المعنى واهية السبك ملتوية الأسلوب يدور أكثرها فى نطاق ضيق من المديح السخيف والغزل والتشطير والتخميس على نمط ليس له من مبرر سوى ذلك العقم الأدبى الذى منيت به الأفكار فى تلك الحقبة المشئومة ، وإلا فأى إنتاج ينتجه أولئك الذين يتناولون بيتين أو أكثر من الشعر بالتشطير والتخميس ، فيعمدون إلى تمطيط معناها وتفكيك أواصرها وحشوها بما يناسب وما لا يناسب من الألفاظ المترادفة والتراكيب المرصوفة ... الخ »

وما كاد الحجازيون يتذوقون المناهج الحديثة فى الشعر حتى حملوا على عشاق القديم حملة عنيفة ليردوهم عن التقليد ويوجهوهم إلى الغاية التى يرجونها للشعر ، وقد جاء فى مقال للأستاذ عواد ينتقد فيه المقلدين : « ... نعم الشعر جميل ، ولكن أين الشعر الذى تنظمونه أو تروونه ؟

أألتمسه فى تخميس :

« تتيهُ علينا مـــذ رُزقت ملاحة »

أم تشطير : « إذا كان لى أهلان أهلٌ ترحلوا »

أم فى مشجر : « على جيد هـذا الظبى فلينظم الدرُّ »

أم فى تخميس آخر مطلعه :

« أتبرى مكان البدر إن فقد البدر »

أم فى مدحة أنشدت للحسين فى يوم عيد مطلعها :

« سَلْ ما لسلمى بسوق النحس تشرينى »

أواه ! كل هذه أيها المتشاعرون صديد فكرى وقيوء (باللغة التى تفهمونها) لو أنفق العمر بأجمعه فى مثلها لما وصل الناظم إلى الشعر . الشعر جميل أما أمثال هذا فلا ... »

وبدهى أن ثورة التجديد فى الشعر الحجازى لا يمكن أن توجه الشعراء جميعاً إلى وجهة واحدة ؛ إذ لا بد له من زمن طويل يشتط فيه المجددون ويسرفون فى التجديد ، ويشمر القدامى بتأخرهم فيقتربون منهم شيئاً فشيئاً ، ويعود المسرفون فيهدئون من ثورتهم ليلتقوا بإخوانهم القدامى الذين تخلفوا عنهم وحينئذ يجتمع فى الشعر محاسن الطريقتين ، ويستقر فى طريق له معروفة مرسومة لا تكون عرضة لزعازع التغيير والتبديل الفجائيين .

حدث هذا الصراع فى الحجاز منذ أن قام الشعراء بنهضتهم الحديثة ؛ فقد حمل المجددون على الجمود والخمول وتناولوا عشاق القديم بالنقد اللاذع فأثر فيهم هذا النقد ، ولم يعد الآن فى الحجاز من يطرب للتشطير والتخميس أو يهتز لألوان البديع ، واتجهوا جميعاً إلى أغراض الحياة يبسطونها فى أشعارهم ويجلونها فى بيانهم وإن كانت ظاهرة الاختلاف لا تزال قائمة ؛ فشعراء الحجاز الآن طائفتان : طائفة مجددة ولكنها متئدة متمهلة تمنى بالديباجة القوية وتبقى على كثير من الأغراض القديمة . وطائفة متوثبة مسرفة فى التجديد قد استطاعت أن تقطع صلتها بالقديم إلا فى الألفاظ والتراكيب .

آخر زيادة على المدة المصرح بها رسميا ؛ ويذكر ماكفرسون أنه كان يعجب أشد العجب ويتساءل عن الداعى لذلك ، وهل هو شدة حب الناس وتعلقهم بأوليائهم ، إلى أن جاءه الجواب أخيراً بعد انتهاء مولد السيدة فاطمة النبوية بنت جعفر الصادق ... يقول ماكفرسون « ولدهشتى البالغة سمعت شيخاً يقف إلى جانب ضريحها (ضريح السيدة فاطمة) وهو يقول : إننا نحتفل بأسبوع الطفل بعد سبعة أيام من مولده ، فلمَ لا نحتفل بأسبوع هذه السيدة الجليلة أيضاً ؟ فلم أتمالك من أن أغمغم وراءه بصوت خفيض : نعم لم لا يكون ذلك » .

(يتبع) أحمد أبو زيد

ولعل الحجازيين عند ما إنفسح أمامهم طريق الرقى الأدبى وجدوا أنفسهم متأخرين ؛ وجدوا مصر والشام ثم العراق قد قطعت فى ميدان التقدم شوطاً بعيد المدى فهالهم الأمر وأرادوا اللحاق بهم ؛ فلم يكن هنالك بد من أن يسرعوا الخطا ويغذوا السير فى حركة الواثب المتحفز الذى لا يبقى ولا يذر . فماذا وجدوا أمامهم ؟

رأوا دواوين الشعر القديم قد ملأت الأسواق ورأوا أدباء مصر والشام قد أنتجوا المعجب فى الأدب ، ورأوا غير هاتين الناحيتين أدبا آخر هو الأدب العربى فى أمريكا ، وهو أحدث هذه الآداب وأقربها إلى الأدب الأجنبى .

وجدوا كل هذا فمال الكثيرون إلى الآداب الحديثة وبخاصة أدب المهجر وتعشقوها وجاهدوا فى تقليدها كأنهم رأوا فيها الخلاص من الجمود والتأخر ؛ فاستطاعوا فى زمن وجيز أن يباعدوا بين مناهجهم ومناهج من سبقوهم ؛ حتى ليخيل إليك عدم الارتباط والصلة بين الأدبين .

وأما الآخرون — وهم أقلية — فقد آثروا الاعتدال والتمهل والتفتوا إلى الأدب القوى القديم يقرءونه ويحاكونه فى بلاغته ورصانته ، ومالوا إلى الأدبين المصرى والشامى ينهجون منهجيهما ويلائمون بينهما وبين حياتهم ، ولم يتركوا من أدب المهجر ماراقهم من موضوعاته ومعانيه . وإنك لتلمس فى الأبيات الآتية وهى « للغزاوى » تأثراً بالأدب العربى القديم فى أساليبه ومعانيه وتجديداً فى قليل من الأخيلة والمعانى :

حمائم الأيك إن أبكاك ذو شجن ... أسفيته الحبَّ إسراراً وإعلانا
وبثٌّ فيه على ذكرى وموجدة ... تذرين دمعك أسجاعاً وألحانا
وظل دأبك فى الأسحار أغنيةً ... يخالها السمع بالتوقيع عيدانا
فما بنفسى مما تشتكى حُرَقٌ ... ولا تعشقت آراماً وغزلانا
لكن سكبت دمى دمعاً على وطنى ... قد كان فى المجد والتاريخ ما كانا

على أن تأثر هذه الطائفة بالشعر القديم يبدو فى طريقة الشعر نفسه فالغزاوى فى قصيدة له عنوانها « منازه الطائف » يملؤها بذكر الأمكنة على طريقة الأقدمين فى ذكر الديار والأطلال فهو يقول فيها :

وتهفو بنا النسمات حين هبوبها
إلى فرص اللذات تحت الكواكب
(بوجّ) وفى وادى (العقيق) ودونه
وفى (ليةٍ) أو بين (قرن) النجائب
وفى (الوَهط) المخضرِّ أو فى (وهيطه)
وفوق (الشفا) أو فى أديم السحائب

ويقول :

ولا أنس (بالمثنات) ليلات أنسنا
وبين (الهدى) أو فى جوار (الكباكب)

وهكذا يسير الشاعر فى قصيدته معدداً الأماكن التى ألفها وأقام بها . ولكن هذا التقليد للأقدمين لا يعدو الطريقة ؛ فإن الشاعر متأثر بهذه الأماكن وله فيها ذكريات ، ولا يعاب عليه أن يذكرها فى شعره ؛ لأنه ذكر العالم بها المتأثر بما فيها .

أما المدرسة المسرفة فى التجديد فقد تعلقت بالثقافة المنقولة عن الغرب ومالت إلى أدب أدباء المهجر من أمثال جبران والريحانى وأبى ماضى وفرحات وغيرهم ؛ وذلك لأن شعراء هذه المدرسة لمسوا فى أدب المهجر ثورة على القديم وجرأة فى التجديد وصراحة فى الحق ، فعكفوا على هذا الأدب لأنهم وجدوا فيه غذاء حركتهم الناشطة ومشعلا يضىء لهم جوانب الحياة التى يرجونها وهى التجديد السريع .

وجد شعراء هذه المدرسة جبران ينعى على التقليد ويحط من شأنه حين يقول : « ... ليكن لكم من مقاصدكم الخصوصية مانع عن اقتفاء أثر المتقدمين ؛ فخير لكم وللغة العربية أن تبنوا كوخاً حقيراً من ذاتكم الوضيعة من أن تقيموا صرحاً شاهقاً من ذاتكم المقتبسة . ليكن لكم من عزة نفوسكم زاجر عن نظم قصائد المديح والرثاء والتهنئة ، فخير لكم وللغة العربية أن تموتوا مهملين محتقرين من أن تحرقوا قلوبكم بخوراً أمام الأصنام والأنصاب . ليكن لكم من حماستكم القومية دافع إلى تصوير الحياة الشرقية بما فيها من غرائب الألم وعجائب الفرح ؛ فخير لكم وللغة العربية أن تتناولوا أبسط ما يتمثل لكم من الحوادث فى محيطكم وتلبسوها حلة من خيالكم من أن تعربوا أجل وأجمل ما كتبه الغربيون » .

(البقية فى العدد القادم) **أحمد أبو بكر إبراهيم**

إلى شقيقي إبراهيم

أهكذا تمضي ...؟

للآنسة فدوى عبد الفتاح طوقان

تساءل البلبل عن صنوه
في الروض ، فاستبكى عيون الزهور

وغصَّ مما هاج من شجوه   بزفرة بين التراقي تمور
من صرّف الشاعر عن شدوه   ولفه بالصمت صمت القبور
وما الذي كدر من صفوه   حتى جفا الوكر وعاف الطيور

ألم يكن والروض خصب مريع   منعما بالعيشة الراضيه
بين سنى يطفو وعطر يشيع   وبهجة غامرة ضافيه
يصبي الفراشات بشدو بديع   تظل من أنغامه الشاجيه
ترف كالزهر حباه الربيع   أجنحة موشية حاليه

وطاف بالروض حزيناً لهيف   يبحث عن شاعره في الشجر
لعله في ظل دوح وريف   يرتشف الطل ويرعى الزهر
يلف عطفيه وشاح شفيف   تنسجه في الليل أيدي القمر
ويبعث اللحن رفيفاً رهيف   محبب الوقع ، مُرِن الوتر

وحين لم يلق أخاه الحبيب   ولم تع الأذن أغاريده
حط على غصن أراكٍ رطيب   ومد من عليائه جيده
وأرسل الشدو حنيناً مذيب   يهز في الأيك أماليده
وودّع الروض بقلب كئيب   إذ لم يجد في الروض غِرّيده

أهكذا تمضي مضيَّ الحلم   طافت سراعاً وتلاشت رؤاه ؟
أهكذا تطويك أيدي العدم   في عمر الزهر وفجر الحياه
ألم تكن نجما سما واضطرم   يشع في الأفق فيهدي سناه ؟
ألم تكن شعراً على كل فم   منسجم اللحن ، حبيباً صداه

أي لحون رعن سمع الزمن   بعثتها من خفقات الفؤاد
أودعتها الروح تناجي الوطن   فيها فتهتز الربى والوهاد
ثم ترامت صريع الوهن   مخضب الجرح ، سليب الضماد

وامتنع الشدو كأن لم يكن   وجذوة القلب استحالت رماد

إذا سجا الليل فقرت عيون   وأسعد الساريَ نجم بدا
تلفت القلب وفيه شجون   مسائلا عنك ، ولكن سدى
لأذرفن الدمع شعراً حزين   مرجع الأنات ، شاجي الصدى
من نور عينيَّ ، وخفق الوتين   حتى توافيني عوادي الردى !

قرد وحمار

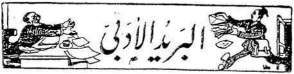
للأستاذ محمود عزت عرفة

كنت أشهد في بعض قرى الصعيد فتى ريفياً يقتاد حماراً أسود قميئاً قد علمه بعض الأضاحيك ولقبه « ظريفاً » . وكان يومئ إليه فيلتبط بالأرض في سكون ، ثم يبدأ يعرض عليه العروض فيقول : تتزوج من جرجا ؟ تتزوج من البلينا ؟ تتزوج من سوهاج ؟ تتزوج من النخيلة ؟ تتزوج من أبو تيج ؟ تتزوج من أسيوط ؟ ... كل هذا والحمار يرفض في إباء ، ويؤكد رفضه بهزات من رأسه حاسمة . فإذا عرض عليه الأمنية النفيسة وقال : تتزوج من مصر ؟ — وثب من رقدته مرحاً خفيفاً وهو يهز رأسه علواً وسفلا علامة القبول !

كنت أعجب بحركات هذا الحمار ، لكن لا أعجب بفكرته — وهو صعيدي — من إيثاره بنات مصر على بنات موطنه الصعيد ... ثم أقول : لا جرم إنه حمار ...

وأخيراً تحقق لديَّ صدق حكمي على عقلية هذا الحمار ، إذ قرأت عن قرد حاذق قص حديثه القاضي التنوخي في كتابه « نشوار المحاضرة » رواية عن ابن عباس الذي حكى أنه « رأى في شارع الخُلْد قرداً معلماً يجتمع الناس عليه فيقول له القراد : تشتهي أن تكون بزازاً ؟ فيقول : نعم ، ويومئ برأسه ، فيقول : تشتهي أن تكون عطاراً ؟ فيقول : نعم — برأسه — فيعدد الصنائع عليه فيومئ برأسه ، فيقول له في آخرها : تشتهي أن تكون وزيراً ؟ فيومئ برأسه « لا » ، ويصيح ويعدو بين يدي القراد فيضحك الناس

كلا الرجلين يمزح في فعله ، ويحاول أن يتفكه ويفكه معه



حول الترتيب التاريخي للزوميات المعري

قلنا في عدد مضى من الرسالة إن الدكتور عمر فروخ أرسل إلينا كتاباً مطولا حول هذا الموضوع يتهم فيه الدكتور عبد الوهاب عزام بكيت وكيت ، ثم لخصناه وعلقنا عليه بما رأينا أنه الحق . وفي يقيني أن الدكتور فروخاً لو عرف الدكتور عزاماً أكثر مما عرف لاستبعد عليه أن يسرق بحثاً من بيروت ليقرأه في مهرجان المعري بدمشق . ولكن الدكتور لم يرضه تلخيصنا لكتابه ولا تعليقنا عليه ، فبعث إلينا بكتاب آخر يرمينا في مقدمته بالتعصب للدكتور عزام والتستر على (جريمته) والخوف من (نفوذه) ، ويوعد بأنه سيطلب حقه من الدكتور عزام ومنى بما طلب به المتنبي حقه في بيته المعروف ، فرأينا تكذيباً لظنه وتبديداً لوهمه أن ننشر كتابه بنصه . قال عافاه الله بعد (الديباجة) :

« طالعت المقالات التي كتبها الدكتور عبدالوهاب عزام عن لزوميات المعري وعن ترتيبها التاريخي في الأجزاء ٦٢٤ — ٦٢٥ ٦٢٦ من الرسالة الغراء ، ولقد لفت نظري أمران :

أولهما : أن الدكتور عزام قال في آخر المقال الثالث : « هذا ما بدا لي في تاريخ اللزوميات وترتيبها ، فمن بدا له ما يؤيد رأيي أو ينقضه ، فليتفضل مشكوراً بالإدلاء برأيه والإبانة عن حجته » ومعنى ذلك أنه أول من فعل ذلك

وثاني الأمرين : أنني وجدت شبهاً عظيما ، بل تطابقاً بين الأسس التي اتخذها الدكتور عبد الوهاب عزام لترتيب اللزوميات وبين الأسس التي كنت قد استخرجتها ثم جعلتها أساساً لكتابي « حكيم المعرة » الذي صدر في بيروت في شباط (فبراير) من عام ١٩٤٤

في هذا الكتاب عنيت بوضع أسس لترتيب اللزوميات ، إذ أنني كنت أحاول حل قضية معقدة ، هي ما ينسبه بعض المتأدبين، من التناقض إلى حكيم المعرة . وبعد تدبر هذه القضية بدا لي أن ذلك راجع إلى أن ترتيب اللزوميات على حروف الروي ليس الترتيب التاريخي لها مما بسطته في موضعه

واستطعت بعد الدراسة والمقارنة أن أضع أسس ترتيب اللزوميات على خمس قرائن (حكيم المعرة ص ٢٤ — ٣٤) :

أولا : إشارة المعري نفسه إشارة عامة إلى نظم اللزوميات وترتيبها (ص ٢٤ — ٢٥ من حكيم المعرة)

ثانياً : الإشارات التاريخية وأشهرها قصة صالح بن مرداس (٢٦ — ٢٨)

ثالثاً : إشارة المعري إلى سني عمره في أثناء نظم اللزوميات (ص ٢٨ — ٢٩)

الناس — استدراراً لعطاياهم — باتخاذ أمثال هذه الألاعيب . ولكن للفكاهة المستحبة مظهر من الجد ، ومرمى غامض من العبرة والموعظة بدونهما تكون عبثاً لا طائل تحته

ونظرية هذا القرد صائبة — أعني نظرية صاحبه — إذا نحن تأملنا منصب الوزير على عهدها ، وما كان يتهدد الوزراء يوم ذاك من خلع وقتل وحبس واستصفاء ، فما وجه نظرية حمارنا — أو حمّارنا — في الزواج ؟ !

الحق أن هذا الفتى الريفي وحماره يعبثان بقدر ما كان الشاطر البغدادي وقرده يجدان ؛ وفرق ما بين الأولين والأخيرين هو فرق ما بين المسلمين اليوم وأسلافهم في القرون الخوالي ... هو فرق ما بيني أنا — عربي القرن الرابع عشر — والتنوخي ناقل القصة وعربي القرن الرابع .. هو فرق ما بين دولة نفضت يدها من المجد أو كادت ، ودولة كانت تأخذ من المجد بأوثق أسبابه . فليذهب القراد والحمار جميعاً إلى الجحيم ، فما كان لهذه المقارنة العابرة بينهما أن تريبني في مستقبل الإسلام والعرب ، ولكني مع ذلك رجل مؤمل ومشفق معاً ، أخاف مثلما أرجو ، وأتشاءم لقاء ما أتفاءل . وأحب أن نكون — حتى في مزاحنا — جادين فلا تشغلنا القشور عن تعرف اللباب ، أو يصرفنا الغلاف عن تصفح الكتاب ...

ومن يدري بعد ، فلعل قرويّنا معذور في فعله ؟ بل لعله حكيم ثاقب الفكرة ، أليس يقدم لنا مزحته الجوفاء ، وما تنطوي عليه من فكرة حمقاء ، على يدي حمار أسود قميء ؟ !

رابعاً : الإشارة إلى تقدم سنه من غير أن يذكر السنوات صراحة كأن يتكلم على شبابه وشيبه ومله من الحياة وحبه لمفارقة الدنيا ... الخ (٢٩ — ٣٠)

خامساً : تطور أسلوبه فى نظم اللزوميات من حيث النضج والقوة (ص ٣٠ — ٣١)

* * *

وجاء الدكتور عبد الوهاب عزام فسلخ القرائن الأربع وذكرها على التوالى الذى اخترته ، إنما بعد أن حذف القرينة الخامسة ؛ لأن البحث فى الأساليب أصعب من البحث فى غيرها . ويدهشك فوق ذلك كله أننى اعتبرت القرينة الأولى (أعنى إشارة المعرى نفسه إلى نظم اللزوميات وترتيبها) مقدمة لا غير ، لأنه لا يجوز أن أنسب إلى نفسى استخراج أساس أشار صاحبه إليه إشارة واضحة . ولقد فعل الدكتور عزام ذلك مثلى تماماً ، ثم بدأ بالإشارات التاريخية الخ على الترتيب نفسه لم يغير منه شيئاً

على أن هذا لا يمكن أن يكون توارد خواطر ، لأن الخواطر قد تتوارد فى بيت من الشعر أو فى رأى أدبى عارض ، أما فى بحث علمى طويل ذى فصول وفروع وتقسيم واستنتاج وشواهد وأمثلة فأمر مستحيل وخصوصاً إذا اتبع المتأخر المتقدم

ولقد كان توارد الخواطر ممكناً فى زمن تقطع بين أرجائه الصحارى والمدى البعيد ، أما اليوم فى عصر السيارات والطيارات والبريد السريع ، فأى عذر ينهض بالمتأخر إذ ادعى أن خاطره وخاطر المتقدم قد توارداً ؟

بقى على الدكتور عزام أن يدعى أنه لم يطلع على كتابى ، وهذا مردود من وجهين :

أول ذينك الوجهين أن كتابى صدر قبل عام ونصف عام من صدور بحثه ، وأن الناشر فى بيروت قد أرسل نسخ كتابى إلى العالم العربى ، وأرسلت أنا إلى ناشر فى لندن عدداً كبيراً . ولقد نقدت كتابى المجلات ، وبعضها أشار إلى هذا الترتيب التاريخى .

وثانى الوجهين أن العالم الحقيقى لا يهجم على عمل مثل هذا إلا بعد أن يتقصى الكتاب ويقتنى الكتب والمجلات ، وخصوصاً إذا خطر له موضوع ذو خطر

* * *

وهناك أدلة أخرى على أن الدكتور عبد الوهاب عزام أخذ البحث عنى ولم يبدأه بنفسه ، منها أن نماذجه التى يدعى أنه استخرجها من اللزوميات لا تسند نظريته الدعاة ، فليس كل بيت فيه ذكر للسن راجعاً إلى سن المعرى . وكذلك ذكر الدكتور عزام فى الإشارات التاريخية أسماء « محمود ومسعود » ، وقد ذكرت أنا ذلك ولكن فى باب آخر (راجع ص ٩٤ من حكيم المعرة) للدلالة على أن عمر الخيام كان شديد التأثر بلزوميات المعرى ، فيما ذكرت من أدلة ذلك

عمر فروخ

وقد اطلع الدكتور عزام على ما نشرته مجلة (الأديب) وكتبته مجلة (الرسالة) ، فأرسل إلينا الكتاب الآتى :

الأستاذ الجليل صاحب الرسالة

السلام عليكم . وبعد ، فقد اطلعت فى العدد الأخير من مجلة الأديب التى تصدر فى بيروت على كلمة عنوانها « إلى الدكتور عبد الوهاب عزام » وتوقيعها « قارئ » . وخلاصتها أن هذا القارئ أدرك تشابهاً بين مقالاتى التى نشرتها فى « الرسالة » عن لزوميات المعرى وبين بحث فى كتاب للدكتور عمر فروخ اسمه « حكيم المعرة » . وظن القارئ ، وبعض الظن إثم ، أنى أخذت « الفكرة والترتيب والأدلة والنماذج » من هذا الكتاب

وقد أرسلت إلى مجلة الأديب مبيناً أنى لم أطلع قط على بحث فى هذا الموضوع للدكتور عمر فروخ ولا لغيره قبل كتابة مقالاتى ولا بعدها . ولم أستطع أن أتكلم فى هذا التشابه بين البحثين حتى أطلع على الكتاب

ثم اطلعت اليوم فى الأسكندرية على العدد ٦٣١ من الرسالة — وقد فاتتنى قراءته حين صدوره — على كلمتكم التى نقلتم فيها نبذاً من رسالة الدكتور عمر فروخ إليكم ، وأبديتم رأيكم فى الموضوع

وقد أخذت من هذه الكلمة أن بحث الدكتور عمر الذى وقع التشابه بينه وبين بحثى يرجع إلى ترتيب اللزوميات فحسب .

ومن قرأ بحثى فى « الرسالة » يعلم أن موضوعه : متى نظمت اللزوميات وكيف رتبت ؟ فهو قسمان : الأول : تحديد الوقت الذى نظم فيه المعرى لزومياته ؛ والثانى : بيان أن ترتيب اللزوميات على الروى يوافق الترتيب الزمانى أولا . والبحث الأول هو الذى

كلفنى قراءة اللزوميات كلها واستخراج الحوادث التى ذكرت فيها ، والرجال الذين ذكرهم الشاعر وتأريخ هـذه الحوادث وهؤلاء الرجال واستقصاء الأبيات التى ذكر فيها المعرى سنه ، والتى ذكر فيها سواد شعره ومشيبه ...الخ ، وقد انتهيت إلى أن الكتاب نظم بين سنتى ٤٠٠ و ٤٢٠ من الهجرة

وأما البحث الثانى المتضمن أن ترتيب اللزوميات غير مساير للتاريخ ، فالأمر فيه أهم ، والفصل فيه يسير بعد الفراغ من البحث الأول

فهل يدعى الدكتور عمر التشابه بين كلامى وكلامه فى البحث الأول أو فى البحث الثانى ؟ الذى يؤخذ من الكلمة التى نشرتها الرسالة أنه يجادل فيما يتصل بالترتيب التاريخى وحده ، وكل من قرأ بحثى يعلم يقيناً أن كلامى فى هذا لا يمكن أن يؤخذ إلا من بحثى فى القسم الأول ، فهو نتيجة محتومة لى ، وهو ليس بذى بال بعد البحث الأول ، ولا يقتضى الباحث عناء ولا تعمقاً ، فليس معقولا أن أنقله عن غيرى بعد أن فرغت من البحث الأعمق الأشق الذى بينت فيه متى نظمت اللزوميات

ومهما يكن ، فإنى أعيد ما أرسلته إلى مجلة الأديب ، أى إلى هذه الساعة التى أكتب فيها هذه الكلمة لم أطلع على بحث لأحد فى هذا الموضوع ، ولا رأيت كتاب الدكتور فروخ

ولو كان الفصل فى ترتيب اللزوميات وتبيين أنها ليست مرتبة على التاريخ يعد فتحاً فى الأدب ما أجزت لنفسى أن أنتحل فيه كلام غيرى ، وأن أسوم نفسى ما لم تعوده من الاتكال على أبحاث الناس ، بله النقل أو السرقة

إن هذا البحث وما هو أعظم منه وأشق وأجدى ، ليس عظيما من رجل مثلى يقرأ اللزوميات كلها قراءة فاهم ناقد

وكان خيراً للدكتور عمر ولمن كتب فى مجلة الأديب أن يرسل إلىّ الكتاب ويسألنى رأيى ، فإن المسارعة إلى اتهام مثلى بنقل كلام الناس لا يليق بالأدباء ، ولا يلائم تثبت العلماء

وأرجو أن تنشروا هذه الكلمة مشكورين . والسلام

(الأسكندرية ٧ رمضان) **عبد الوهاب عزام**

ملاحظة وتصحيح :

اطلعت فى البريد الأدبى بالرسالة تحت هذا العنوان على نقد للأبيات التى وردت فى كتاب « فى بيتى » للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد ، وقد أشار فيه الكاتب إلى أن صدرى البيتين الثانى والثالث خارجان عن البحر ، وأنهما لا يصحان على وجه من الوجوه . قال : ثم بحثت الأمر لأتأكده فظهر لى ما أدركته أولا ، كذا !

ولما كان الروى هو التاء المكسورة ، وكان الوقف لا يصح عليها ، لأن (القصر) لا يدخل البحر المجتث ، ظهر لى أن فى البيت الثالث إقواء ، فكلمة « أداه » فى البيت لا يصح جرها بحال

وأحب أن أعفى الأستاذ العقاد من الرد على هذا النقد ، فقد كان فى استطاعة الكاتب أن يرجع إلى هذه الأبيات فى ديوان « وحى الأربعين » ، ليرى أن الشاعر قد وضع علامة السكون على القافية ... وكان فى حل من وضع هذه الإشارة ، لأن القوافى ليست من حركة واحدة . ويحسن بى أن أطلع القارئ على هذه الأبيات كاملة كما قرأتها فى « وحى الأربعين » ليصدر حكمه عليها:

النـور سر الحياة   النـور سر النجاة
النـور وحى النهى   النور وحى الصلاة
النور شوق الفتى   النور شوق الفتاة
إلحه بالروح لا   لمح العيون الخواة
ما تبصر العين من   معناه إلا أداة
هـذا سبيل الهدى   لا ما افتراه الهداة

ويتبين من هذه الأبيات أن وزنها :

مستفعلن فاعلن   مستفعلن فاعلانْ

بسكون التاء فى القافية ، وإذ كانت الموسيقى هى رائد الشاعر فى كل ما ينظم ، فمن واجب الناقد أن يحلها المحل الأول حين يعرض لهذه الناحية من الكلام ، فقد يعن للشاعر أن ينظم على وزن جديد ، أو أن يأتى بنظام لم يسبق إليه ، وهو بعد صحيح سليم تتقبله الأذن وتستطيبه النفس

فمن الحجر على الشعر والشعراء أن نقول لهم : قفوا عند حدكم ، فإن الأقدمين قد وقفوا عند هذا الحد . هذا لغو وجمود لا أحب أن يبتلى به الشعراء فى القرن العشرين

والمطلع على أبيات الأستاذ العقاد يجدها سليمة من ناحية الوزن قوية من ناحية الموسيقى فضلا عما بها من المعانى السامية ، ولا يطالب الشاعر بأكثر من ذلك

محمد طاهر الجبلاوي



تــــوان
أو
عند ما تسيطر المرأة

[إلى الحزب النسائي مع تحياتي]

للكاتب الفرنسي جي دي موبسان

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسي

جرى على لسان كل من كان يعيش على مبعدة سبعة فراسخ من حانة « التورنفان » اسم صاحب الحانة « انتوان ماشبل » ... وقد تعددت الأسماء التي يدعوه بها رفقاؤه وخلانه ، فتارة يطلقون عليه « باتوان » وطوراً « فَيَـفْ ستار توان » وحيناً ينادونه « جود أولد بنسن » ...

وكان لتوان الفضل في الشهرة التي نالتها حانة « تورنفان » ... فقد ذاع صيتها مع أنهـا لا تزال مزرعة فقيرة تقع في كنف متطرف من الوادي الذي يشرف على البحر ؛ وقد أحيطت ببعض الجواسق التي يتخذها نفر من أهالي « نورمنديا » مقطناً لهم ... فغرسوا ثمت الأشجار السامقة ، وأقاموا السدود ، وقد جثمت تلك القرية على جدول تخالط ماءه الرقراق خضرة النبات الذي ترعرع على شفا الجدول ... وهو ينحدر من الأكمة والتلال التي أوحت باسم « التورنفان » .

ويخيل إلى الإنسان الذي ينظر إلى تلك الجواسق في كنف الوادي ، أنها بعض الطيور وقد أوت إلى ثم ، عند ما تعصف الرياح والأعاصير البارقة التي تكتسح ما على شاطئ « نورمنديا » من الدور الصغيرة . وقد زادت عنها السدود والأشجار ، وهذه العواصف تأتي على كل شيء فتجعله قاعاً صفصفاً ... أما المزرعة الفقيرة فكان يتملكها « انتوان ماشبل » وأحياناً « جود أولد بنسن » وأحياناً أخرى « فَيَـفْ ستار توان » أما اللقب الأخير فلعله صدى لتلك العبارة التي كان يفوه بها نادراً « إن خمر « فَيَـفْ ستار » لهو أجود ما يجده المرء في فرنسا ... » لقد ظل قرابة العشرين عاماً ينقع غلة القرويين بسلافه العذب المعتق ... وما من قادم يسأله : « ما الذي تستحسنه اليوم ، يا توان ؟ » فيجيب في غير تلعثم أو تردد « قدح من راووق المعتق يا بني ... يبعث الدفء في جوفك ، والسكينة إلى نفسك ، وهو خير ما يرجى لصحتك » وينادي توان كل إنسان « يا بني » مع أنه لم يرزق ولداً لا في الحلال ولا في الحرام

عرف توان بأخلاقه الطيبة ، وخلاله الفضلى ... ولو أنه كان حادراً زهماً ، حتى أنه كان أكثر الريفيين شحماً ، هذا إن لم يكن قد فاق أهل نورمنديا قاطبة .

وكان كوخه — على النقيض من ذلك — صغيراً ضيقاً .. فمن يره وهو قائم على باب داره حيث يقضي طيلة يومه ... يتولاه العجب عند ما يفكر كيف يتخطى ذلك البـاب الضيق المنخفض إلى صحن الدار ... يقف توان على قارعة الطريق يدعو كل من يتوسم فيه الأناقة والثراء إلى حانته حيث يقدم إليه بعض الخمر على سبيل التجربة والقياس . وقد علق على واجهة حانوته لوحة سطر عليها « حانة الصداقة » . وكان هشاً بشاً لكل من جاوره وأمه ...

وقد يفد عليه خلق كثير من إقليمي « فيكامب » و « مونت فليير » وغايتهم أن يروا توان ، ويتندروا بفكاهاته المستملحة ومزاحه العذب الذي يضحك الحجر الصلد ... لقد أوتي القدرة على أن يشيع المرح حوله دون أن يضجر من يجالسه ؛ والقدرة على أن يخبط ساقه في حركة تنتزع الضحك من فيك — شئت أو لم تشأ — ، والقدرة على أن يجعل حاجبيه يعبران بما لا يستطيعه لسانه ... إن منظره وهو ينهل الراح ليبعث وحده الضحك والسرور إلى العيون الساهمة الحزينة ...

وقد يجرع توان كل ما يقدم إليه من أنواع الشراب كلها ، فيلمع في عينيه بريق الخبث ... وتتألق مقلتاه بالابتهاج الذي يجملك تقدم إليه المزيد من الشراب . وطالما كان يسأله مواطنوه : « لم لا تلعق من ماء البحر ما يشبع شراهتك هذه ؟ » فلا يسمع إلا أن يجيب في هُناف : « ثمت سببان . فأولا : ماء البحر أجاج

تعافه النفس ؛ وثانياً : ينقصني تلك المدة التي يمكنها أن تسع ذلك الماء الطيسّل » .

* * *

عند ما ينقلب توان إلى زوجته ، تدور رحى الشجار بينهما فيبدأ فصل روائي لا يقل عن الفصول المسرحية روعة وبراعة ... لقد انصرمت على زواجهما ثلاثون عاماً ، لم ينقض يوم واحد منها إلا والشجار حليفه ... والذى باعد شقة الخلاف بينهما هو الفرق البين بين روحه المرحة الطروب ، ونفسها الصاخبة الصلفة.

كانت امرأة ريفية فارعة الطول تسير في خطوات طوال كأنها البجعة ، وقد منحها الله سحنة مقطبة عبوسة كالبومة ، راحت تمضى وقتها بين دجاجها تعنى به وترعاه في قفصه خلف الحانة ... وقد ذاعت مهارتها في تربية الدجاج بين جيرتها . وكانت تتطفل على الولائم دون دعوة أو خشية لائم ... ولا تجدها إلا حانقة صاخبة ساخطة على العالم بأجمعه ... أما في الفينة الأخيرة فكل سخطها تركّز على بعلها ... كانت تحقد عليه لبشاشته ومرحه ، لشهرته وصيته ، لصحته ورهله ... وطالما نعتته « بالماجن المحظوظ » لأن المال يأتيه طواعية دون كد أو جد في طلبه ... أو « الخنزير السمين » لأنه يأكل قدر ما يتناوله اثنا عشر رجلا ... وقلما ينقضى يوم دون إثارة انفعالها وحنقها ...

ابتدرته يوماً صائحة : « انظر أيها النهم الشره ... انظر إلى نفسك وأنت تسير كالكتلة البشرية ... سوف تلتهم الطعام التهاماً حتى يحل ذلك اليوم الذى تنفجر فيه بطنك كالحزمة من القمح ، وقد انقطع رباطها ... » فانطلق توان يقهقه وهو يربت على بطنه في رفق وهوادة ، وما لبث أن قال وهو يلوح بذراعه : « آه ... أيتها « العصا الرفيعة » لست أدرى ما الذى يمنعك من أن تسمنى نفسك كما تفعلين مع دجاجك ... أنى لأتوق وأنت تقومين بذلك أيتها المرأة » وردّدت الجدران بعد ذلك صدى الضحك الذى انبعث من أفواه الحاضرين ... وقد جلسوا إلى الموائد الخشبية ، فيوغر ذلك صدر المرأة بالغيظ والحنق فتندفع قائلة : « تباً لكم أيها الكسالى ... فما يرجى منكم نفع ولا ضر » ثم تغادر الحجرة شامخة بأنفها ، مصعّرة خدها ، مشيّعة بضحكات السخرية والاستهزاء ...

يبدو أن كل من كان على شاكلة توان ، وقد حباه الله جسداً حادراً أو كان ضيق الصدر لا يلبث أن يداعبه الموت مداعبة القط للفأر ، ولا يلبث بعد هذه الضخامة أن يذبل عوده ، ويسرى الهلاك رويداً في بدنه ، ويتسرب الموت إلى نفسه كما يسير اللص في هدأة الدجى ... فيطوّح أولا بذلك الشعر المجعد ، وينثنى إلى الأعضاء الزائدة ... ثم لا يلبث أن يذهب بما بقى ... هذا ما يجعلنا نفغر أفواهنا دهشاً لنقول : « يا إلهى ! أيطوح الموت مثل هذا الحجم ! »

ولكن المنية غفلت عن توان ... غفلت عن منظره الضخم المثير للضحك ... بل حبته صحة وقوة ... حبته طلعة مبهجة مؤنسة ، فكان ذلك يثير حنق زوجته فتصيح : « رويدك أيها الرجل ، فسوف يأتيك منجله من حيث لا تدرى ... »

* * *

ألمّت بتوان صدمة خلّفته قعيد الفراش ، مصاباً بالفالج ، ولزم المارد العجوز فراشه في غرفة صغيرة خلف الحانة ... حيث كان في مقدوره أن يحس ويسمع ما يدور حوله ، وأن يتبادل الحديث مع خلانه وراء الحائط ... وعلى الرغم من أن جسده كان مقضياً عليه بعدم الحركة ، فقد ظلت روحه الطروب على مرحها وسرورها . وكانوا جميعاً يأملون في أن تسترد أعضاؤه القدرة على الحركة والتنقل ولكن آمالهم ذهبت أدراج الرياح ... فحكم القدر على توان أن يمضى وقته في فراشه لا يغادره ... ولم يحاول أن ينتقل من مضجعه إلا مرة واحدة ، حيث استطاع بمساعدة اثنين من جيرته النهوض مستنداً إليهم ... لتبدّل زوجته فراشه بآخر .

لم يكن يفارق مرحه وبشاشته إلا في حضور زوجته ، فإنه كان يبدو وديعاً رزيناً كالطفل ... كانت تقول له على الدوام « انظر إلى نفسك ... انظر إلى تلك الكتلة العديمة النفع . آه ! أنت تجلس في الفراش مستريحاً ، وعلىّ أن آتيك بما تود ... » فلا يسعه غير الصمت ، وإغضاء طرفه ، ويتحامل على نفسه لكى يجلس في فراشه . وكانت الحركة الفريدة التى يأتيها هو أن يتقلب ذات اليمين وذات اليسار ... راح يستمتع بالإنصات إلى لغط

القوم فى غرفة الشراب ، وإذا ما تعرف على صوت صاحب له صاح يناديه : « ألست « سلستن » ؟ ! إنى هنا يا بنى » فيجيبه سلستن « أنا ذا يا توان . أما تستطيع أن تنهض وتأتى إلينا ؟! » فيقول توان ثانية : « ليس فى طوقى أن أنهض ... ولكنى فى صحة جيدة . ولم أفقد عقلى بعد » وبعد هنيهة يدعو أصدقاءه المقربين إلى غرفته . ويتمتع برفقتهم حيناً ، ولو أن منظرهم وهم يجرعون الخمر دونه يثير كوامن نفسه ... وينغصه بعض الشىء . فيقول فى تذمر : « أف لهذا الداء ، فهو الذى يمنعنى أن أتناول قطرة من راحى المعتق . يا لتعاستى » .

وتظهر زوجته بغتة من النافذة فتصيح : « انظروا إليه ... انظروا إلى « الماجن المحظوظ » لقد أخذت على عاتقى أن أطعمه وأصنع ثيابه ... وأنظفه وهو جالس كالخنزير » وعند ما يغيب وجه زوجته من النافذة ، يقفز إلى حافتها بعض الدجاج حيث يأخذ فى الصياح والتقاط فتات الخبز . ويغادره أصدقاؤه بعد أن يعدوه بالحضور فى عصر كل يوم للتندر معه ، ويستمعون إلى قعيد الفراش وهو يلقى عليهم فكاهاته التى تجعل الشيطان عينه ينطلق ضاحكا ...

وظل ثلاثة من أصدقائه يختلفون إليه على الدوام وهم : « سلستن مالويسل » وهو رجل معروق قصير كساق شجرة التفاح . و « بروسبر هورسلافيل » وهو رجل دعوب ذو أنف محدب ، خصه الله بخبث الثعلب ولسان لاذع متهكم ، و « سيزار بومال » الذى لا ينبس ببنت شفة ، ولكن يلذ له أن ينصت إلى توان . وكانوا يحضرون معهم لوحة خشبية يطرحونها على السرير ليمضوا الوقت فى لعبة النرد ... ابتداء من العصر حتى الساعة السادسة مساء ... لم تكن زوجة توان تطيق أن ترى بعلها مبتهجاً مستغرقاً فى اللعب ... فكانت كثيراً ما تهبط عليهم فجأة فتقلب اللوحة ، وتصيح أنها لا تطيق رؤية ذلك النفر من الخنازير لا يجدون شاغلا سوى الحضور إلى دارها للترفيه عن زوجها « خنزيرهم الأكبر » وكأنه الأمير لا يعفر قدميه فى العمل الشاق الذى تقوم بأعبائه سحابة يومها ... فيحنى كل من : « سلستن مالويسل » و « سيزار بومان » هامته أمام العاصفة ، أما « بروسبر هورسلافيل » فيأخذ فى إثارتها ، فكانت تصب عليه جام غضبها وحنقها ...

قال لها « بروسبر » يوماً وكانت فى سورة سخطها : « رويدك يا سيدتى أتدرين ما الذى أصنعه لو كنت مكانك ؟ » فتوقفت برهة عن السب واللعن ، وصوبت إليه نظرة حادة — كنظرة البومة — فواصل حديثه قائلا : « إن حرارة هذا الطفل العجوز كأنها الأتون المستعر . هذا ما أراه يا سيدتى ؟ انتفعى من هذه الحرارة بجعله « يفرخ البيض » ! » ففغرت المرأة فاها من العجب وراحت تفكر ، ثم عاودت النظر إلى بروسبر - ذلك الثعلب الماكر - فعاد يقول : « نضع تحت ذراعه خمس بيضات ... وخمساً تحت ذراعه الأخرى - كما تضعين البيض تحت الدجاج - وعند ما يفرخ ، نأخذ الفراريج وندعها لدجاجة ترعاها كما لو كانت فراريجها . ومن ثم يمكنك أن تحشدى قفصك بالدجاج . أما هذا بصحيح ؟ ! » فقالت المرأة وقد عراها الذهول : « أو تظن أنها ستفلح يا بروسبر ؟ ! » فأجابها على الفور : « دون شك ، فكما يفرخ الدجاج فى قفصه يستطيع زوجك أن يفرخ فى سريره .... »

كان لإيحاء بروسبر أثره الفعال ... فبعد أسبوع حملت زوجة توان عشر بيضات فى فضل ردائها إلى زوجها القعيد ... وقالت : « لقد أرقدت الدجاجة الصفراء على عشر بيضات ، وها هى عشر بيضات أخرى لك ، فحاذر أن تحطمها ... » فقال توان بعد أن أفاق من وقع هذه الصدمة : « يا لله ! ما هذا ؟ ! أأصاب عقلك لوثة من الشيطان ؟ ! » فأجابته زوجته : « عليك بتفريخ هذه العشرة كما تفعل الدجاجة أيها الأبله » فراح يضحك ، ولكن عند ما أحس لهجة الإصرار فى صوتها لم يلبث أن ثار غضبه لامتهان عزته وأخذ يلعنها ، ويعارضها فى أن تتخذ من ذراعيه مصنعاً للتفريخ . فجن جنون المرأة وصاحت فى عزم وحزم : « إذن لن تعرف للطعام سبيلا ما دمت لن تفرخ البيض ... ضعها ثم دعنا ننظر يا زوجى العزيز » فراح يهددها بتحطيم البيض إن هى أدنته منه ، فنأت عنه ... حتى دقت الساعة معلنة الثانية عشرة فصاح : « ويحك ! علىّ بالغداء أيتها المرأة ! » .

— « ليس هناك غداء لك ! أيها الخنزير العجوز » وخيل إليه أولا أنها تمزح فكث غير طويل ... ثم ما لبث أن راح يصب لعناته عليها وعلى النساء اللائى يسيطرن على أزواجهن

فيجعلن منهم لعبة فى أيديهن ... وأخيراً راح يتوسل إليها وهو يتلوى ذات اليمين ، وذات اليسار . بيد أنه لم يجد فى النهاية بداً من أن تضع خمس بيضات فى الفراش لصق ضلوعه اليسرى . وحينئذ أمكنه أن يتناول غذاءه ... وفى المساء حضر إليه الأصدقاء ؛ فكان مسلكه غريباً حيالهم وكأن المرض يعتريه ، ولم يجدوا منه إقبالا وبهجة للعب ، فقد كان يضع يده فى حذر إلى جانبه عند ما تعنّ له الحركة . فسأله هورسلافيل : « ماذا دهاك ؟ ! أذراعاك يؤلمك يا توان ! ؟ » فأجاب توان : « يخيل إلى ذلك كأنما أصاب أكتافى النقرس » وفجأة سمعوا لغط حاكم المدينة ووكيله يلجون الحانة ، ويطلبون قدحين من الخمر ، ثم راحا يتحدثان فى شئون البلدة .

وبينما هما يتحاوران فى لهجة قانونية ، مد توان أذنيه إلى الحائط ليتمكن من الإصغاء ، وقد سها عن البيض . وتحرك إلى اليسار قليلا حركة جعلت البيض يصير « كالعُجَّة » . فتبدّ توان فى كآبة وكدر وهو يشمّ النازلة . واندفعت زوجته إلى الغرفة ورفعت أغطية السرير ، ووقفت تحدق هنيهة فى ذهول نحو الخليط الأصفر الذى أخذ يسيل من ضلوع زوجها ، ثم انهالت فى ثورة الجنون على الرقيد المفلوج لكما وضرباً فى حرارة ونشاط ... أخذت يدها ترتفع وتنخفض ، وتيسّر وتيمّن فى ضربات قاسيات تهبط على بطن زوجها المنتفخ كأنها الأرنب يعمل يديه حفراً فى الأرض ... وعلا هذه الضجة جرس القهقهة التى أخذ يطلقها رفقاؤه ، فى رنة فرح وابتهاج ، وحاول الزوج المنكود أن يتقى ذلك السيل من الخبط ، وقد انهمر عليه فى قسوة لحطم الخمس بيضات الأخرى مما زاد الطين بلة ...

* * *

عاش توان بعد ذلك يعمل للتفريخ فقط ... فحرمت عليه زوجته اللعب مع رفقائه ، لكى لا يأتى أى حركة طفيفة تحطم البيض فيتعرض لقسوتها فقد كانت تحرمه من وجبة الطعام إذا ما شرخ بيضة واحدة . فاضطجع فى فراشه عاجزاً عن الحركة ، تحدق عيناه فى سماء الحجرة . وقد ضم يديه إلى ضلوعه مرغماً ليجعل الدفأ والحرارة تسرى إلى البيض ذى الكرفئ الأبيض الهش ، لا يرتفع صوته إلا بالهمس ... فقد كان يخشى الضجيج خشيته من الحركة ...

وبعد فترة من الزمن أخذ يركز اهتمامه على الدجاجة الصفراء فى محضنتها وطالما سأل زوجته فى قلق « أتناولت طعامها اليوم » وزعت المرأة العجوز وقتها بين زوجها وفرختها وأمنها الذى راودها أن ترى أفراخا تتنسم الحياة سواء أفرخ زوجها فى الفراش أو دجاجتها فى القفص ... وذاع الخبر فى طول الريف وعرضه ، وأخذ الناس يفدون على « حانة الصداقة » من كل فج عميق . وهم تواقون إلى رؤية توان « راقداً على البيض » . كان يتجهون إلى غرفته بأطراف ساهمة ـ شاع فيها الجد ـ وكأنهم يدلفون إلى غرفة مريض :

ــ « كيف أصبحت اليوم يا سيد توان ؟ ! » فيجيب : « على ما يرام لولا أننى أخشى الحركة فأحطم البيض الذى يلتصق بضلوعى » .

هرولت الزوجة ذات يوم إلى توان وهى تصيح : « لقد أفرخت الدجاجة الصفراء سبعة فراريخ ، ومذرّت الثلاثة الباقية » فتسارع الدق فى قلب توان وهو يتبصر فى العدد الذى سيفرّخه هو ! وقال فى صوت شاع فيه قلق المرأة حين ولادتها « أحسب أن نوبتى قد حانت ! » فردت المرأة فى اضطراب « أحسب ذلك »

وما كاد يذاع أن ساعة توان قد أزفت حتى توافد عليه الزوار من كل صوب وحدب ليشاركوه سعادة الفوز ، وطفق الريفيون يتحدثون عن توان ويطرقون الأبواب ليعلنوا أحدث الأنباء ... وعند الساعة الثالثة مساء غفى توان قليلا كعادته ... وفجأة استيقظ على أصوات غريبة ، وأخذ يحس نقراً تحت ذراعه الأيمن ، فمد يده اليسرى ، وأخرج مخلوقاً دقيقاً ، كسى زغباً أصفر ، وراح يتلوى بين أنامله ، وكم كانت بهجة توان عندما صاح بأعلى صوته وأطلق الفرّوج على صدره ، وسرعان ما اكتظت الغرفة بالقوم أحاطوا به إحاطة النظارة ببطل من الأبطال ، وما كادت زوجته تقف إلى جانبه حتى أمسكت بالفروج الذى أوى إلى لحية توان العجوز ... وتقاطر العرق على جبينه من الحيرة والعجب ، وهو يرتعد تحت تأثير شعور عميق ، وفاجأهم ثانية وهو يدمدم : « هه ! ها هو فروج آخر تحت ذراعى اليسرى ! » تخفّت يد المرأة تلتقطه من تحت الغطاء ... وفى حذر ومهارة القابلة أخرجت يدها بالفروج الثانى ... فتجمهرت الجيران حولها ، وأخذوا ينقلونه من كف إلى كف ، وهم يتطلعون إليه كأنه إحدى عجائب الطبيعة !

مضت عشرون دقيقة دون أن يحدث شيء ، ثم أخذت أربعة فراريخ تنقر كرفي بيضها ، وراحت صيحات العجب تتوالى من حين إلى آخر ، وتوان زهو بقدرته الفائقة بين نظرات الإعجاب ، وراح يقول مداعباً : « لقد أفرخت ستة فراريج ، فلي إذن كلمة « التعميد » ... » . فانطلقت عاصفة الضحك من أفواه الحضور ، وامتلأت الغرفة على آخرها بالريفيين ، فظل معظمهم قائماً عند الباب ، وكل من يحضر يسأل فى لهفة :

— كم أفرخ إلى الآن ؟

— ستة فقط !

حملت زوجة توان « الأسرة الجديدة » إلى قفص الدجاجة الصفراء ، حيث جعلت هذه تحبوها — مع أفراخها — بعطفها وتكلؤها بعنايتها ، وتنظف ريشها ، وتضمها تحت جناحيها لتذود عنها غائلة المعتدى !

ثم لم يلبث توان أن صاح : « هه ! هذا فروج آخر » . ولم يكن هذا فروجاً واحداً ، بل ثلاثة فراريج مما جعل الحاضرين يسبغون على توان عبارات الإطراء والثناء ، أما الفروج العاشر والأخير ، فقد نقر بيضته فى الساعة السابعة تماماً ، وبذلك قدر لتوان أن يجوز ذلك الامتحان القاسى بنجاح باهر فاق فيه الدجاج نفسه ، فلم يسعه إلا أن يقبّـل الفروج الأخير فى رفق وحنان ...

وبينا هو فى نشوته يعجب من قدرته على إظهار هذه المخلوقات إلى حيز السكون ، لم تمهله زوجته العجوز ، بل قوضت عليه صرح هناءته « بمولوده السعيد » ... والتقطت منه الفروج لتضمه إلى « باقى الأسرة »

انحل عقد المتفرجين ، وأخذوا يتفرقون إلى دورهم مبتهجين معجبين بتوان وقدرته . وكان آخر من غادر الغرفة « بروسبرهورسلافيل » فسأل توان فى خبث شاع فيه شئ من التهكم : « هه ! استدعونى عند ما يسلق أول فروج ويُقدّم طعاماً على المائدة ! » فأجابه توان ضاحكا : «بلى ... وعلى الرحب والسعة يا بنى »

(طنطا) **مصطفى جميل مرسى**

لجنة النشر للجامعيين أصدرت عام ١٩٤٥

		قرشاً
محمد رسول الله	مولاى محمد على	١٥
عطر ودخان	محمود تيمور	١٥
وإسلاماه	على أحمد باكثير	١٥
الأطياف الأربعة	سيد قطب وإخوته	١٥
أبو ذر الغفارى (طبعة ثالثة)	عبد الحميد السحار	١٥
سلامة القس (طبعة ثانية)	على أحمد باكثير	١٥
مرايا الناس	وداد سكاكينى	١٥
الشيء الصغير	الفونس دوديه	٢٥

		قرشاً
ملك من شعاع	عادل كامل	١٥
الفرعون الموعود	على أحمد باكثير	١٥
إبراهيم الكاتب	إبراهيم عبدالقادر المازنى	٢٥
هتاف الجماهير	أمين يوسف غراب	١٥
سعد بن أبى وقاص وأبطال القادسية	عبد الحميد جودة السحار	١٥
تحليل النفس	محمود محمود	٢٠
الأب	لأوجست ستريندبرج ترجمة وديع فلسطين	١٠

تطلب من

مكتبة مصر — ٦٣ شارع الفجالة

وفى الخارج ١ — مكتبة المعارف (العراق) ٢ — مكتبة الطاهر اخوان (فلسطين) ٣ — المكتبة الأهلية (لبنان) ٤ — المكتبة العمومية (سوريا) ٥ — المكتبة الوطنية (البحرين) ٦ — مكتبة الشباب (شرق الأردن) ٧ — مكتبة كردفان (السودان)